Scanné avec CamScanner

قوس قزح

رواية

Scanné avec CamScanner

الكتاب : قوس قزم - رواية

المؤلف : العياشي ثابت

الطبعة: الأولى 2006

المطبعة :دار وليلي ، الهاتف:48 40 31 024

1 شارع أسفي عمارة الفتح - مراكش

رقم الإيداع القانوني:2006/0960

Scanné avec CamScanner

العيـــاشـــي ثـــابـــت

قـــوس قـــزح

روايـــة

الطبعة الأولى 2006

Scanné avec CamScanner

إهـــــــداء

- إلى اللواتي شرب البحر أكبادهن ، فأغرقن القبيلة

في بحر الدموع . . .

- وإلى كل الناجين من حربة قوس قزح !

المـؤلف

Scanné avec CamScanner

Scanné avec CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

وانطلقت الرحلة

– تسلم نورالدين عامر شهادة الإجازة وسط حشود الطلبة.... بضع تصفيقات، ضحكات هنا وهناك .... وجوم فانصراف:

هتف أحدهم " هنيئا " أسي عامر ! فتح الله لك الأبواب المغلقة!

فُتح أمامه باب الكلية، فخرج منه للمرة الأخيرة.... ثم عاد إلى القبيلة !

بعد خمس سنوات، كتب عامر يقول :"كان والدي يتنهد كلما ذكر زمن " الفرانسيس "، فقد عاش أيام المقاومة العصيبة، عُذب في سجونهم، وأُطلق سراحه بذراع معقوفة، يُشهرها في وجهي كلما سألته بعض المال، أبتغي به طريقا في البحر، صوب آمال بعيدة، تنتفخ عروق رقبته وهو يصرخ :

" أنت لا تستحق هذا الوطن ! أنت لا تستحق هذا الوطن ! "

Scanné avec CamScanner

كلمات تردد صداها بين أطواد هامتي، وضاقت بها فجاج صدري المكلوم.

حاولت حرق المراحل كما فعلوا (.....) فركبت البحر، لعل الماء يطفئ السعير.

السفينة الناجية حملت من كل زوجين اثنين والأهل إلا من سبق عليه القول، ومن آمن، وصاحب القارب يحمل من كل جنس ولون: سود وبيض وغيد...

كنا ثلاثين في قارب ضيق، نفترش اللوح ونلتحف السماء، يشد بعضنا بعضا في رحلة قد تطول...

غمغم صاحب القارب بصوت هادر كالرعد المُدوّي بين برق عينيه الجاحظتين:

"من بقي عليه شيء فليؤده، قبل أن نتوكل!! هيا أسرعوا ! لا حاجة لكم بالأمتعة الزائدة عن اللباس والحمص والماء !

رجل قصير القامة، بارز العضلات، ما إن رآه سعيد حتى ناداه في سخرية :

أنت صاحب القارب أيها القزم ؟

انفجر الجميع ضحكا، بينما تَفرَّس مرافقاه وجوه الحاضرين بنظرات ملؤها الحقد والرغبة في القصاص، واستسلما للتغاضي أمام الصمت الحذر دسست يدي في بطن جرابي، أخرجت المؤخر المتفق عليه، وتقدمت نحوهما. سحب النقود من بين أصابعي في حنق ونفور، ثم أمرني بالعودة

Scanné avec CamScanner

إلى مكاني، ورمى بها في كيس بلاستيكي أسود. امتلأ الكيس، فانطلق به أحدهم، وتبعه آخر... فك القزم وثاق القارب، وأمرنا بالجلوس، وهو يرمقنا بعين ماكرة، يلتفت يمينا وشمالا. لا فرق بين سارق الدجاج وسارق البشر، بين سارق الأنعام وسارق الأحلام !

شفاه ترتجف من برد مَاكِدٍ، وذهول ذهن شارد، تلهج بالشهادتين مع امتطاء أول موجة غاضبة .

...البحر يزبد ويرغي، كأنما أيقظتَ ضرغاما لم تكتمل قيلولته.

أين جماله الأزرق المرصَّع بلآلئ الموج المترامي ؟

أين هدوء سطحه، حين يستلقي جزرا على ظهره المريح ؟

أين قلبه الدافئ الحنون حين يربتُ على أكتاف السابحين، ويلثم حلمات العذارى السابحات ؟

– أين سخاؤه حين يسدي أصناف أطباقه الملأى ؟

أهي ساعة الغضب التي لا عاصم منها إلا من رحم ربك ؟ أم تُرى وقفة العـنفوان في غمرات الأسى ؟!

القارب يخترق الموج ببطء يعاكس نبضات القلوب، يبتعد شيئا فشيئا عن غابة الساحل الموحشة، وغميس الليل يذكي بأوصالنا عفاريت الرعشة المرعبة . أنوار الضفة الأخرى تتراءى في لَأْلاَئِها المخيف. وَشَأْنَ المودِّع الذي يجهل متى يعود أو لا يعود، اجتمعت بذهني كل صور الماضي البعيدة، في عجالة لا مثيل لها، حضن أمي، وصوت أبي، وضحكات المروج في نشوة الصبايا، نتراقص جريا ولهوا... ومائدة لحم

Scanné avec CamScanner

سوق السبت، تتوج أسبوعا كاملا من الخبز والشاي، ومواسم الحرث زمانها برائحة الرماد المشتت على سطح التربة المبللة بالمطر.

والحصاد ! يوم تُجْمع السنابل في البيادر، وتجتمع حولها القلوب فرحا بالمنتوج الوفير، تدور ماشية الدِّرَاس، يتناوب على تحريكها أفراد العائلة دون كلل أو ملل، رغم حَمَارَّةِ قَيْظِ الصيف، يوم كان الصيف صيفا والشتاء شتاء !!

أبي يصفي الحبوب من التبن بعد انتهاء الدِّرَاس في الجرن، ويعد المكاييل لإخراج الزكاة، يتم ذلك في وئام وتعاون بين أهالي بلدتي في سباق مع الزمن، لإدراك موعد الفرجة " موسم مولاي عبد الله ". كان خالي واحدا من قِلَّةٍ عشقت صهوة الجواد ورائحة البارود، أقرأ في ملامحه نخوة الذكورة العربية، يبيع الدنيا بزغرودة أنثى، تنطلق مع انطلاقة" السربة " في تحريكة تشد الأنفاس ولا تطلقها إلا بعد إطلاق صوت البنادق.

أصوات البحر تتعالى، تلتهم أنات القارب الذي بدا غثاء كغثاء السيل، تحركه الأمواج ذات اليمين وذات الشمال، والقزم باسط ذراعيه على جهاز القيادة خلفنا، لو اطَّلعتَ على نظراته قبيل الركوب، لَمُلِّئْتَ منها شكا وريبة، بيد أني أحببت سماع أدعية التازي، يلتمس الفرج من السماء، في نظرات تتأَرْجَحُ بين أضواء الشمال والجنوب.

أينك أيها الرداد العزيز ؟

Scanné avec CamScanner

عقمت أرحام نساء القبيلة أن تلد أندادا لك، رغم جودها وسخائها في سنوات الجذب الطويلة، القحط كما تقول عطالة وخمول، وفورة الشبق في حر صيف لا ينتهي....

من لي بجلسة وداع إلى جوارك أيها التمثال الحي ؟! – أحدهم بجواري، يتأفف، يريد أن يتكلم والسلام ؛ حدثني.... عن نفسه، عن فقر أبيه، عن أهله المستضعفين فقال :

كان أبي يعيب أمي فيقول: ظللت تلدين حتى ولدت من عينيك ! أغرقتني في بحر الأطفال حتى أصبحت سخرية أهل الحالة المدنية، امتلأ الكناش ! يقولها وكأنها دجاجة تبيض بديك وبلا ديك ! هل كان بإمكانها كبح جماح نزواته ؟! في البداية كانت تذهب، كما تفعل نسوة الكاريان، إلى مولاي بوشعيب الرداد طلبا للأولاد! وفي النهاية...؟؟ من يوقف الزحف ؟ صيحة المستوصف جاءت متأخرة ! بيتان من القصدير الذي صدأ من الخارج، ولولا الآجر الذي بني من الداخل ليلا لما صمد في وجه الريح والمطر، من حسن الطالع كان البيت جوار عمارة تحجب عنا رياح الشركي المتكررة. ولم تحجب عنا فيضان 96 جرف كل شيء إلا الأرواح بحمد الله، لم تسلم منه حتى بناية جامعة شعيب الدكالي، بنوها عند مصب واد قديم، تذكر مجراه، وآثر معاقبة من أنكروا وجوده!

لم أتعلم تجارة ولا صنعة، قضيتُ عمري في مدارس الضاحية، ضاقت بي السبل فاخترت أن أكون الليلة على متن قارب مجهول المصير....

Scanné avec CamScanner

أحببت رغدانة "بنت كلية العلوم"، كنا نتبادل الهموم و السموم، والأفق اليحموم، نسلك سبيل التناسي، نتجاذب أطراف الحديث الكاذب مع سبق الإقرار والإصرار، ونُصَدِّق بعضنا، تحرقنا شمس الأماسي ولهيب المآسي. لقد حلف الشيطان بأغلظ الأيمان أن ينتقم لخروجه من الجنة، فوجد فينا ضالته، تمسكَتْ بي كمن تمسك بغريق فقضيت على ماضيها وحاضرها وآتيها، وقضيتُ ثلاث سنوات بسجن العدير. انتهت قصة الحب...س!!!.

في نهاية كلامه قال: اللهم لقاء مع أمواج البحر أو لقاء مع أفواج البطالة، ثم سكت.

Scanné avec CamScanner

في وحشة الخلاء المائي

ما أوحش هذا الخلاء المائي ! هو اليأس المعشِّش في أغصان الوريد يجعلني أبتلع الرعشات والعتمات، وبين رمشة عين والتفاتتها، يشع ضوء المنارة من هناك، يرسم أقواسا عابرة تظهر وتختفي. أحمد يهمس في أذن التازي، الوجدي يكلم فاطمة بصوت أجش، وصوت القزم يخترق الآذان، يرمي بسهام الغلظة كلاما نابيا، وعيدا كالسياط على الرؤوس. يرد عليه مرافقه العملاق بما يشبه شنآن الصعاليك في حانات البغاء . لا يلقيان بالاً لوجود النساء ! وكلنا يجتر الصمت في شأن يغنيه عن الإحساس بالخجل أو ما سواه... خُيِّل إلي لحظة، أَنْ لَوْ كنا جميعا حفاة عراة، ما التفت منا ذكر لأنثى ! ولا تحرك فينا وازع الرغبة الجانحة عداهما !

هو ذات الضوء، أجل،،، كانت تبعثه المنارة، يتحاكى في غمزاته الليلية جمع الرداد قرب حائط "الجامع". كان يطيل النظر باتجاه ذلك الضوء المتقطع، ويُسِرُّ إلي في هدوء : " إنه قلب المدينة ينبض بانتظام، وتهتدي بنبضاته المراكب السابحة " !

Scanné avec CamScanner

وقاربنا ؟ يبتعد شيئا فشيئا عن المنارة وضوئها، عن نبضات قلب المدينة. وربما عن الحياة بأسرها، شيء من وسوسة الصدر وشتات الفكر يحدثني بالغرق !

تنملت أطرافي كما يحدث دائما، كلما تذكرت ذلك الصيف الكئيب: انتصبت فيه الخيام في منظر يريح العين، واستحالت أوريكة جزءا من تضاريس المنطقة الخلابة، جغرافية متحركة، وبدت عروسا تسحر الألباب، وتجذب الزوار من كل صوب وحدب. ما أجمل فرحة المصطافين! العشاق الحالمين ! تناقلت الأسلاك أنباء الخسائر، سيل جارف، طوفان ضرب الوادي، يقلب الحجر والبشر، لم ينج منه إلا من أبعده الله عنه... فقُطِع دابر المخيم ذلك الصيف.

وقطع الوجدي حبل مخيلتي إذ انتفض، بدا في صوته ارتعاد ورجفة قال :

" رحم الله زمن ابن بطوطة لا ديوانة، لا حدود، لا فيزا " يومها كانت أرض الله واسعة. لو عاش زماننا، ما أتحف النظار بغرائب الأمصار وعجائب الأسفار !"

يقولون: "سياحة الفقراء عبر الشاشة الصغيرة، والطائرة لأصحابها! تعرفون لماذا أوجد على ظهر هذا القارب ؟ لأنني أرفض أن أعيش نهاية القرن العشرين وبداية لاحقه دون أن أركب الطائرة ولو مرة واحدة !

Scanné avec CamScanner

مسكين أيها الوجدي ! لو تعلم أن الرداد قال لي يوما (والعهدة على القائل) : " كثيرون عاشوا عصرنا دون أن يركبوا السيارة حتى ! عاشوا في دواوير نائية، بلا طاقة أو بطاقة، بلا كناش للحالة المدنية أو العسكرية، تزوجوا بالفاتحة، وماتوا بعد أن قرأ الفقيه عليهم ربع "يس".

ولكنني قلت للوجدي ؛ من حقك أن تحلم . حتى الرداد كان يردد:

" إذا طلبت شيئا فليكن ذا قيمة "

– الوجدي: من هو الرداد ؟

– حكاية طويلة!

– (لا حول ولا قوة إلا بالله). حوقلة التازي خرجت من جوفه تصاحب حر الآه، فهدأت من روع القلوب قليلا.

– عباس : إيه ! لا تذكرون الله إلا عند الشدة !

– التازي : من قال لك ذلك؟ أنا أصلي وأصوم وأريد إكمال ديني.

– عباس: تعتبرون المرأة نصف الدين، وتعاملونها معاملة (إلا ربعا!)

– التازي : تخوض فيما ليس لك به علم، أتعلم كم ركعة في صلاة المغرب ؟

– عباس : (متهكما) أظنك ممن يتمسك بحقه في أربع زوجات وهو لا يملك سوى غرفة واحدة .

– التازي : اللهم إني مهاجر !

Scanné avec CamScanner

- عباس : بل " حارك "

- التازي : لو كنت بجانبي لجاهدت فيك .

- عباس: تقتلني بهذه البساطة ؟!

- التازي: أنت من ذكر القتل. الجهاد أنواع لن نتفاهم أبدا.

- عباس: رغم أن وجهتنا واحدة !؟

- التازي: أية وجهة ؟

- عباس: الحكم طبعا !

- التازي: وجهتي هي الطاليان.

- عباس: الطاليان أم الطالبان ؟

تدخل القزم بفضاضة وغضب : أصمتوا أيها الأوغاد، عن أي حكم تتحدثون؟

خيم الصمت لحظة، ثم تكلم الوجدي :

رحم الله قائلا: " لا نعطي الولاية من يطلبها " الولاية أمانة ورعاية للرعية. بدأ رسول الله (ص) حياته برعي الغنم : حكمة بالغة! رعاية الغنم تقتضي أن تحافظ عليها، فتعدها صباح مساء، أن تهتم بأكلها وشربها ومبيتها، فتأخذها إلى المرج العاشب والنبع الزلال، أن تحميها من الذئاب، ومن العراك فيما بينها، أن تمنعها عن مروج الغير، وتعودها بكلمات متى تقف ومتى تسير، أن تحبها، فتحنو عليها ولا تقسو أبدا.

Scanné avec CamScanner

- أحمد : - خير للمرء أن يشتري لابنه بضع غنيمات بدل الألعاب النارية إذن ؟!
- القزم : أصول الحكم تُدرَّس في المعاهد والجامعات المختصة أيها الجهلة !
- أحمد : عجيب أمرك، تتحدث في واد، وتقود قاربا في بحر!
- القزم : لا فرق بيني وبينك، كلنا يبحث عن ملء جيوبه
- أحمد : لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.
- القزم : والماء المالح أيضا (يضحك بصوت عال)
- أحمد : أنا أفر من بر إلى بر.
- القزم : وأنا أفر منهما معا، وجدت ضالتي بين البرين.
- أحمد : أنت انتهازي ومجرم بطالة.
- القزم : وأنت ساذج.

أسرها أحمد في نفسه وصمت. لا طائل من مجاراة هذا الأحمق المتسلط الذي بدا كمن يدوس جثث الجرحى والقتلى في ساحة الوغى، خوفا على نفسه من الألغام. عض سبابته في إحساس رهيب بالندم، أشفق على نفسه، أحس كأنما على فراش الموت يحتضر، وينتظر لحظة الانهيار القاتل.

أفرغ ما تبقى في معدته جراء الدوار، وكذلك آخرون تباعا، غطس يديه في الماء، نثر منه على وجهه، فأحس بانتعاش طفيف. هو إذَّاكَ

Scanné avec CamScanner

أحرص الناس على حياة، يتراقص البر الماضي في ثنايا مخيلته، يلتقط منها صورة أخيه علي، يدير ظهره للقزم، ويبدأ الحكاية: (لماذا يحكيها؟ لا يهم ! لنستمع إليه)

" كان علي برعما متفتحا، أضفى ميلاده على العائلة طعم الحلاوة رغم ضيق ذات اليد. خلال حملة التمنيع الأولى سنة 1987 ، تلقى الحقنة بواسطة شوكة، نسي المرض تعقيمها، بعد يومين، أخذته أمي إلى المستشفى، أزالوا مضاعفات التعفن من فخذه، وكان ذلك سببا كافيا لتحرمه الاستفادةَ من حملات التلقيح كلها، فتعرضَ للحصبة ؛ كادت تقتضي عليه بعد شهور، لكنه نجا هذه المرة... أذكر ليلة من ليالي الصيف الحارة، أفقت على صوت أمي، تمسح جبينه بخرقة مبللة، ارتفعت حرارته، وتورم خده الأيسر، أبي في الحظيرة يخرج البغل، يربطه بالعربة، وعند عتبة الباب عقرب سوداء مقتولة : لسعته الغادرة! حمله أبي بين ذراعيه، أمسكت عنان البغل، ولَوَّحت بالسوط مسرعا، دقات قلبي تُسابق وَقْع حوافره. صمت رهيب يخيم على البلدة، إلا نباحا يتردد من هناك ؛ ما أبعد المستوصف ! لاح لي ضوء خافت من نافذة مكسورة الزجاج، حملت أخي بين ذراعي، العرق يتصبب من جبينه، دخلت قاعة المستوصف الخالية إلا من قطة سوداء انتبهت لحضورنا فماءت، كأنما ترد التحية. خرج الممرض بعد أن طرقنا باب مرقده، كان نائما ! لم يفاجأ بحضورنا، ألقى نظرة على أخي وقال:

Scanné avec CamScanner

العقرب ثانية ! مشكلة ! ليس لدينا الحقنة المطلوبة ! لم نتوصل بها منذ الأسبوع الفارط.

- صاح أبي : كيف ؟ وما العمل ؟
- ما عليك إلا أخذ ابنك إلى المدينة.
- المدينة تبعد بثلاثين كيلومترا، والولد يحتضر، قد يموت !

تدخل طبيب المستوصف : بدل الخوض في حديث زائد، تدبر أمرك بسرعة، تحتاج إلى سيارة .

- أية سيارة ؟ ألا تأخذني بسيارتك سيدي الطبيب ؟
- ليس فيها بنزين.
- لا يهم أشتري لك البنزين
- من أين ؟ لقد أوصيت أحد المرضين أن يحضره، ولن يأتي قبل الصباح. توجهت صوب المرض، حاولت إرضاءه لإنقاذ أخي، تبين لي أنه لا يستطيع تقديم المساعدة.

خرج أبي باحثا عن سيارة .

نظر الطبيب إلى علي، حاول بقطعة قطن غطسها في سائل أن يفعل شيئا مكان اللسعة. كان غاضبا يقول : أي مستوصف هذا ؟ كيف تعمل بلا وسائل ؟ علمت فيما بعد أنه في بداية مشواره العملي.

مات علي. أجهش والدي بالبكاء عندما رآه جثة هامدة ، عاد بسيارة أحدهم بعد فوات الأوان.

Scanné avec CamScanner

ما أصعب أن تعدم الوسيلة عند الحاجة ! ما أقسى أن يموت الإنسان أمام ناظريك، ولا سبيل لك إلى إنقاذه ! بدا الأمر أشد وقعا على الطبيب أيضا، لمست في نظراته إحساسا بالإهانة والعجز : لا تكفي صنعةُ الطبيب وخبرته ! أحسست بالدموع تنزل بغزارة على صدري، كواد يخترق وجهي الساخن. " إنا لله وإنا إليه راجعون" البعوضة تدمي عين الأسد، والعقرب الصغيرة تقتل الإنسان المعزول . أدركت أنه بغروره وظلمه، أضعف مخلوق على وجه البسيطة . لم تفارق مخيلتي صورة الطبيب العاجز والمرض المغلوب على أمره والمستوصف المعزول، وامتزجت كلها بعزلة هذا القارب اللعين . فقلت: عظم الله أجرك في أخيك. تأوهات هنا، وحوقلة هناك، وأحمد يضغط على أرنبة أنفه بمنديل، في محاولة لطرد رائحة الحيض... لو يجد مكانا آخر، لقفز إليه على الفور، وليث اتجاه الريح يتبدل قليلا! لم يجرؤ على قول شيء للجالسة قبالته فصبر، لكنه أفضى إلي بما يضايقه. استلفت قارورة العطر من فاطمة، أعطيته إياها، رش منها قليلا بكفه، ورش المنديل أيضا، قبل أن يعيده إلى مكانه. أدركَتْ جارته الأمر، فوضعت إزارا على جزئها الأسفل وهي تقول : لقد ازدادت شدة البرد ! حرك رأسه وقال : فعلا ! وانتهى الأمر.

Scanné avec CamScanner

المطاردة

انتبهت، فإذا بالقارب يدب، وفي نفسي رغبة في المزيد من السرعة. لمحنا ضوءا خافتا يتجه صوبنا، يزداد شعاع الضوء كلما اقترب منا. كل العيون مشدودة صوب الضوء. التفت القزم إلى مرافقه وقال: لابد منها !

– أجابه متلعثما : وماذا تنتظر ؟

– لا مناص من الهرب.

تبدل صوت المحرك، ازدادت سرعته بشكل مخيف،

– المرافق : هيا، أسرع باتجاه اليسار، عاكس اتجاه الموج !

– القزم : اللعنة، هذا ما كان ينقصنا !

وبدأت المطاردة ...تسمر الجميع في مكانه، عين على القزم وعين على الضوء الملاحق. أشعلوا مصباحا يدويا أحمر يظهر ويختفي، لا أحد يبالي بالأضواء، بعد مسافة ميل أو أكثر بقليل أدركوا (...) أن لا جدوى من ملاحقتنا، فعادة ما تكون محركات قوارب الموت، ذات قوة هائلة، لكنهم لا يفلحون دائما في الإفلات.

Scanné avec CamScanner

تنفس الجميع الصعداء، كان بعضنا يهنئ الآخر، وبعضنا يمسح دموع النساء. اختلاط مشاعر الهلع وفرحة النجاة من خطر محقق أنطق رشيدة التي ظلت صامتة منذ بداية الرحلة، أخذت تحكي بنبرة تجمع بين الدموع وأشياء أخرى، كأني بكلب تفاجأ بقدوم صاحبه الغائب منذ فترة، فاختلط عليه النباح بالضراط:

"كلهم يرغبون في إذلالي، وإعادتي للبهدلة في البيوت، كفاني من أكل الفتات والنوم في أركان المطابخ، وتحرش الآباء والأبناء، لن أعود لن أعود إلا في صندوق الأموات أو يحكم الله لي!"

أثناء المطاردة، لمحت سعيدا يحرك يده اليمنى في إشارة إلى الصليب بعد هدوء العاصفة، ودون سؤال مني، أقر لي أنه تنصر، كان أحد معارفي، لكنه لم يخبرني قط بما يعتقد .

أدركت أنه مظلوم أكثر مني، وظالم لنفسه أكثر من أهل القارب الملعون. كرهت نفسي، كرهت قارب اليأس والضياع هذا. كنا على شفا جرف هار قد ينهار بنا في أية لحظة. ساورني الشك في القزم، كلامه بين الحين والحين يزرع شوكا لا سبيل إلى حصاده. بعد المطاردة، ضباب كثيف أخفى ضوء المنارة، أتلفت كل الاتجاهات، لكن القارب يسير ....

إيه! أيها الراكبون قارب الذل والتيه!

لا فرق بينكم وبين أطفال الشوارع كما أتخيل لا تنقصكم سوى قطع البلاستيك تشمون ما بداخلها (من سليسيون أو ديلويون) لتكتمل الصورة! تصارعون البحر والظلمات كما يصارعون البرد والنكبات! يختبئون في الأماكن المهجورة والردهات صحبة الجرذان والعناكب....

Scanné avec CamScanner

يتعرض الضعاف لسطوة الأقوياء، وليس الأقوياء مشردين دائما مثلهم بل مرضى يتصيدونهم على حين غفلة.

يصيح زعيمهم: "هيا، لنبدأ حملة تسول وسطو ! تفننوا في افتعال الإعاقات : الأعمى عند باب المسجد !

الأعرج عند مدخل السوق المركزي!

القتين قبالة المسرح!

والآخرون، صبوا جام غضبكم على المارة، اسلبوا كل ما بحوزتهم!

"أيها الناس، احذروا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة !"

انتهى كلام زعيم العصابة !"

قلت لسعيد بعد صمت :

- لو تعرض هذا القارب للإغراق أو الغرق، لمات كل من عليه موتة الكلاب.

- لن أجد من يستلم جثتي ؟

- أليس لك غراب ؟

- لا، خير لي أن أعبر إلى الضفة الأخرى.

- صحيح، لا يجوز أن تُدفن معي في مقبرة واحدة..

- كيف، نختلط أحياء ولا نختلط أمواتا ؟

- هنا حساب، وهناك حساب!

وبصوت مسموع توجه الوجدي بالسؤال إلى أحمد وفي نيته إشراك الجميع في النقاش لتغيير الأجواء:

Scanné avec CamScanner

– يقولون: إنسان الخمسينات والستينيات أذكى جيل عرفه المغرب الحديث، الإنسان المتعلم طبعا، أليس كذلك ؟

– من أين أتيت بهذه الخرافة ؟

– سمعتها والسلام .

– ماذا تريد أن تقول ؟

– أتساءل لماذا لم يستعمل ذكاءه في وضع تصورات مستقبلية، تجنبنا هذه الرحلة المشؤومة (يضحك الجميع)

– الدراسات المستقبلية موجودة.

– أين هي ؟

– في الكتب والمجلات والجرائد... أنت لا تقرأ.

– ولكنني أسمع وأشاهد التلفزيون لم يقولوا شيئا.

– بل قالوا إن التصورات عاكسها الواقع بسبب إكراهات الديون والجفاف...

– عدنا إلى لغة الإكراهات، ألا تصمت من فضلك، مالنا وللسياسة ؟

– ومن قال لك إن الناس يهتمون بالدراسات المستقبلية ؟ لا ينظرون أبعد من أنوفهم.

– هذا صحيح، يقولون : الأفضل للأولاد أن يتعلموا صنعة أو تجارة بدل الذهاب إلى المدرسة.

– لهذا يعمل الأطفال في سن مبكرة !

– فماذا بقي للطفل إذن ؟

– يوم عالمي لحقوقه، ألا يكفي ؟!

Scanné avec CamScanner

تنملت ساقاي، لا سبيل إلى الوقوف، محاولة الإعتدال لا تجدي نفعا، امتد التنمل إلى سائر جسدي الصعوبة نفسها تعتري العديد منهم، حاولت الوقوف، حركاتي أثارت أعصاب القزم، فأسكت صوت المحرك وقال :

– بقيتم هنا ! يبدو أن أحدكم أو إحداكن على غير وضوء.

– فاطمة : أي وضوء ؟ تأخذون الأموال الكثيرة، ولا تقومون بالصيانة اللازمة، ماذا ؟ تحسبون أنفسكم في حافلة للأسواق .

– هوني عليك. سنصل بعد قليل.

– كيف ذلك، وقد تعطل المحرك ؟

– سنمشي قليلا على الأقدام. ألم تتعبوا من الجلوس؟ هيا ترجلوا!

– ما هذا الهراء، أنت لا تعي ما تقول !؟

– وأين تظنون أنفسكم، في قطار سريع، تقفون متى تشاءون وتجلسون كما تشاءون!؟ إذا لم يعجبكم الحال نُعَرِّج على أقرب مركز للشرطة، ماذا قلتم ؟ لزم كل منا مكانه، لا جدوى من عناد هذا الأبله المعتوه.

أدار المحرك وانطلق من جديد.

قلت في نفسي : حاشا لله أن يكون هذا القزم من سلالة مسعود الفلاح، الرجل الطيب الغيور على أرضه وعرضه. كان يعمل في مزرعة تجاور الساحل الأطلسي، يسقي الخضروات بماء بئر حفرها جده المرحوم، صدقةً جارية، يرتادها ساكنةُ الجوار بغير حساب. حتى إذا جاء المعمرون أحاطوها بسياج، ووضعوا عليها محركا كهربائيا يجلب الماء إلى صنابيرهم، وظل مسعود يستفيد منها دون سواه. جثم هذا الفعل على

Scanné avec CamScanner

صدره، بل كان كالعظمة في حلقه المشدود. لم تكن البئرُ الثروة الوحيدة التي ورثها عن جده، بل خبر عنه صناعة المفرقعات بواسطة البارود وأشياء أخرى. كان اليقطين الكبير ضمن ما ينتج. يدس القنابل الصغيرة في قلب اليقطينة قبيل نضجها ؛ يشقها بطريقته الخاصة، ويدرها في الحقل حتى يلتئم جرحها، فيختفي أثر الشق تماما. ثم ينقلها مقاومون إلى حيث تُنفد العمليات الفدائية بالمدن. وكلما سمع أخبار المقاومة ردد مع نفسه : ليسقط الإستعمار ! : ليسقط الإستعمار !

كانت قنابله ذات نفع مزدوج : قنابل مضادة للعدو الغاصب وقنابل مضادة للجوع. مع ذلك لم يحصل مسعود على بطاقة مقاوم، فقد بات ينقصه شهودٌ قَضَوْا نحبهم؛ ولم يزل فلاحا مناضلا، يتقدم مظاهرات أعياد العمال إلى أن لقي ربه.

لعمري ما في هذا القزم قطرة واحدة من دم مسعود !

لم يستسغ الوجدي ما جرى فسأله :

– لماذا تعاملنا بهذا الشكل، لن نخلد على ظهر قاربك ؟

– "ادْخُلْ سُوقْ رَاسْكْ !"

ضغطت برفق على قدم الوجدي فسكت.

آثرت النظر إلى السماء، أتأمل شساعة الكون ورحابته، قدرة الله وعظمته، كيف خلق فصور، وأبدع فقدر، كون يسير في نظام عجيب ! يأتي الإنسان من غيب، يحيا مع غيب وينتهي إلى غيب !

Scanné avec CamScanner

في الجهة الأخرى، عباس يضحك ملء شدقيه. تعجب التازي: "بَازْلِيكْ آخُويَا تْضْحكْ منْ قَلْبْكْ !"

– ماذا تريد ؟ أن أنفجر رعبا وجدالا ! لقد تذكرت الحاج امبارك لقرع " ذلك البدين. لا أظن أن القارب يتحمل ثلاثة أمثاله. رجل أمي، إذا دخل البنك انهالت عليه عبارات الترحيب من كل الموظفين دون سواه؛ عضو برلماني، رئيس جماعة قروية، رئيس جمعية مربي الأبقار، رئيس تعاونية الحليب، رئيس فريق كرة القدم، لا يشتغل إلا أثناء الحملات الانتخابية. كان في البداية جزارا بالأسواق، يحكي أبناء القبيلة أنهم وجدوا بقرة مسلوخة بجانب الطريق الرئيسية المعبدة، وقد فُصِّلت أجزاؤها ولم يبق منها إلا الرأس والجلد، تتبعوا الأثر فاقتادهم إلى بيته... ويحكون أنه كان يشتري الأبقار المحتضرة بأبخس الأثمان ؛ وبعدها أصبح تاجر أبقار كبير، اللهم لا حسد !

– كلام سخيف، أليس عندك غيره ؟

صاحت فاطمة : أنت أيها القزم، هل معك إناء؟

– بإمكانك الخروج من القارب إذا أردت قضاء حاجتك.

– لعنة الله عليك "يا ولد الحرام".

تدخل سعيد : أَلَعْنُوا الشَّيطان !

– وهل هناك شيطان غيره ؟

– كفى كفى ! أيتها البنات افسحن لها قليلا !

Scanné avec CamScanner

ناولنها الإناء، أدار الجميع وجهه عكس الرياح المحملة برائحة البول، وضعت أصبعي على مقدمة أنفي. أفرغَتْ فاطمة الإناء في البحر، وغسلته بماء البحر أيضا.

كيف يبقى طهورا ماؤه مع كثرة القوارب ؟

وهل كل ميتة البحر حلالا ولو كانت بشرا ؟

تعالت الأمواج حتى بدت كثبان رمل تحركها ريح عاتية، والقارب فوقها ريشة في مهب الريح طائشة.

قلت لسعيد : عجيب أمر هذا القزم، يحتفظ بهدوئه وسط هذا الهياج، يذكرني بسائق الحافلة 4 التي كنا نركبها من الكلية إلى باب الملاح كالسردين الواقف، نحسبها تزيغ عن الطريق وتكاد ترْتطِمُ بالآخرين، ولكن السائق يرى غير ما نرى في ثبات وحذر !

– أي ثبات وأي حذر ؟ إنها خدعة العين ! طريقنا ساحة حرب بامتياز، طريقُنا طريقَتُنا في القتال. يقتتلون ويتحدثون عن خطإ في التقدير وأخطاء في الغير....! أمر محزن حقا !

– لا ينفع حذر من قدر !

– بل الحذر مطلوب، "وخذوا حذركم" صدق الله العظيم.

– لست أدري كيف ألقيت روحي في هذا اليم الكئيب ؟

– تملك زمام نفسك ولا تملك أمر روحك.

– جنيت على روحي إذن؟

– بل على نفسك، فالروح من أمر ربي.

Scanné avec CamScanner

– ما الفرق بين النفس والروح؟

– يتحدثون عن النفس، ولو علموا كنه الروح لاستنسخوا منها الآلاف؛ يودون لو عمروا ألف سنة.

– للتمتع بالحياة طبعا؟

– بل للتهرب من ضرائب الذنوب.

– وهل تسقط الذنوب بالتقادم؟

– لا سند لذلك في الوحي.

– فكيف تسقط الضرائب!

– كما تسقط العجائب والغرائب.

الصمت المخيف ينشر أجنحته من جديد. وكلما أدار أحدهم رأسه نحوي أو حركه، تمنيت لو يتكلم، لو يخرجنا من دائرة التهيؤات المرعبة.

لو يريحنا في محطة من محطات الماضي الذي لا نملك غيره، فالحاضر فاحم موقود، والمستقبل ضباب مفقود!

ها هو عباس المشاكس، صاحب القبعة الصوفية التي تشبه الخوذة الحديدية، لا تُظْهِرُ من وجهه إلا أنفه وعينيه، يقطع الصمت بمنشار لسانه، وقد أمسك بيده اليمنى مصباحه اليدوي على شكل ميكروفون!

هنا إذاعة قارب القزم، ومنها يحدثكم عباس غَلِيظُ الراس. (يضحك الجميع حتى القزم هذه المرة).

Scanné avec CamScanner

– الخبر الأخير : أبرم القزم اتفاقية ود و صداقة مع القرش الأزرق هذه الليلة، تقضي بعدم أكلنا أو التعرض لقاربنا المشؤوم. هذا وتنتهي فترة الاتفاق بحلول فجر الغد.

– القزم : ألا تجد غيري موضوعاً لنشراتك ياأبله ؟! العالم مليء بالويلات!؟

– عباس: لا تنزعج، لا تنزعج! هل أتاك حديث المدشر المهجور؟ سأقصه عليك. كلهم يلتفتون إلى عباس: احك، احك يا عباس! (لقد تعلم أصول الحكي في سجن عكاشة):

استل قنينة من بين فخذيه، عب منها جرعة كبيرة، سعل كالمزكوم يمسح دموعه بطرف كمه ثم قال:"وجدنا كلبا أتى عليه الهُزَال حتى خِلناه شبحا بعينين، ولَكُمْ أن تتصوروا شعور معتقل منسي يرى أمامه بشرا. كان يطمع في كل ريشة تحركها الريح قُدَّامَه، بل كان المخلوقَ الوحيد الذي تَبقَّى من ساكنة المدشر المهجور! لا أصدق أن قلوبا بهذه القسوة، تأبى أن تفك وثاقهُ وتَدَعَه يأكل من خشاش الأرض . لست أدري كم مضى عليه من الزمن يقاوم الجوع والعطش. حاول النهوض فسقط للتو، يحتاج إلى إنعاش؛ رمي إليه زميلي بقطعة خبز، أدخلها بصعوبة في فمه، لاكها قليلا، حاول بلعها فانحبست داخل بلعومه، ولم يُخْرِجها إلى بخروج روحه. تأفف زميلي: كنت أنوي مساعدته، ليتني لم أفعل، يصبر كل هذه المدة، ويلقى حتفه على يدي! قلت: هون عليك، لقد ساعدتَه فعلا، وأرحتَه من عذاب طويل. ومشينا صوب منزل أحد

Scanné avec CamScanner

معارفنا، لا أثر للحياة إلا في حشرات وزواحف، المنازل خاوية على عروشها. فجأة ظهر لنا فقيه "المسيد" سابقا. أخذ يضرب كفا بكف ويردد: لا حول ولا قوة إلا بالله، انظروا ماذا فعل "الكافر بالله"، انظروا ماذا فعل الجفاف! طرد مدشرا بكامله، لم يبق إلا البوم، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. لم ننبس أمام الفقيه بكلمة، كنا نرقب حركاته، لم تكن له سكنات، بل مضى يحدث نفسه، ثم دخل المسجد، فسمعناه يرفع الأذان كما كان يفعل من قبل : الله أكبر الله أكبر ...

– قال زميلي: ولمن يؤذن ؟!

– قلت: لنفسه، ألم يكن يصلي منفردا حتى عندما كان المدشر مسكونا؟! جلست إليه

ذات يوم بعيد صلاة العصر منذ سنتين وكنت آنذاك في زيارة لأحد معارفي بالدوار، فكلمني طويلا : يثني على فلان ويصب جام غضبه على علان، ثم يُفضي إلي ببنود الشرط بينه وبين أهل المدشر فيقول:" اشترطت عليهم ثلث قنطار حبوبا كل سنة للفرد (رب الأسرة) علاوة على حظي من الزكاة (إذا زكوا)، والأكل والشراب بالتناوب بينهم، والأربعائية وعلف الحمار، واشترطوا علي تعليم الأطفال وغسل الموتى، ورفع الأذان للصلاة والإمامة بهم(إذا صلوا)، وكنت أضيف إليها كتابة الرقى للنساء وخياطة الجلابيب للرجال. هذه السنة لم يفوا بشروط العقدة سأنتقل إلى دوار آخر .

قلت في نفسي : لعمري هذه عقدة القرن ! لا مجال للمقارنة بين عقدة انتقال الفقيه وعقدة انتقال لاعب كرة !

Scanné avec CamScanner

ثم أردف الفقيه يتوقع : "يوما ما سيصبح هذا المدشر أطلالا، لن تجد حتى من يبكي عليها، فكل الشعراء انغمسوا في المدن وزخرفوا أبياتهم بالفسيفساء والرخام. رحم الله زمنا كان الرجل يقطع الفيافي والقفار ليظفر بلقاء شاعر، اليوم يقطع الشعراء المسافات ليجدوا من يستمع إليهم".

وكنت سألته عن مصير المدشر وأهله فأجاب : "أما المدشر فسينضاف إلى أرض " الحاج عبقادر "، وأما أهله فسيتيهون وسط المدينة أو يمسكون بذيلها "

قال زميلي : صَدَقْتْ رؤيا الفقيه.

Scanné avec CamScanner

ويزحف الموت بقوة

شهيق نوال المتواصل يخترق المسامع، يُخرِس عباس ويخرسنا، تهاوت المسكينة على ركبة فاطمة، لامسَتْ شعرها في حنو الأم الرؤوم، هَدأَ شهيقها، لامستْ كفها، حاولت إيقاظها من غفوتها، حركَتْها بقوة، طلبتْ من الجماعة فعل شيء وهي تصيح : توقفوا ! توقفوا ! قفز الوجدي نحوها يتخطى الرقاب والنظرة الحاقدة للقزم، جس نبضها كما يفعل الطبيب في العيادة فصاح : لقد ماتت ! عم القارب ضجيج ولغط وتساءل الوجدي : ما العمل ؟ رد القزم! " ليست الأولى ولن تكون الأخيرة طبعا، من مات من الشياطين خفف عن الملائكة " !

– حرام عليك، اذكروا أمواتكم بخير، أليس في قلبك رحمة ؟!

– هيا تخلصوا منها بسرعة، البحر لا يشبع !

– كيف، أتريد أن ترميها في اليم ؟

– وهل تنوي أخذ جثتها معك إلى مقابر الأندلس ؟ لا أريد مزيدا من المشاكل، البحر سترة !

Scanné avec CamScanner

تقدم مرافق القزم يقول :افسحوا الطريق، هيا من يساعدني على دفنها ؟

– أين تدفنها، في الماء ؟

– أجل، وهل لديك حل آخر ؟

– لو لمست شعرة منها رميتك مكانها.

تدخل التازي : اهدآ من فضلكما، لندع الجثة حتى نتدبر أمرها في هدوء.

أمسك مرافق القزم بذراع الوجدي وهو يقول : إكرام الميت دفنه، وأنا سأدفنك قبلها يا كثير الفهم. ألا تعلم أن للقارب حرمتُه وحراسُه، (ضَرْبَاتْكْ النَّفْسْ عْلَى...) اشتبكا والقارب يتمايل بقوة، سقطا معا في الماء، الكل يتابع المأساة... كان المرافق العملاق قويا، وكانت صيحة الوجدي وهو يسقط في الماء آخر ما سمعنا منه.صعد العملاق من جديد، أمسك بجثة نوال ورمى بها في الماء أمام ذهول الجميع وهو يقول : هل منكم من يود مرافقتهما ؟ ثم عاد إلى مكانه، استبدل ثيابه بما انتزعه من ثياب " الحاركين " ثم جلس بجوار القزم يمج دخان سيجارة ماذا يحدث ؟ أين نحن ؟ وإلى أين نسير؟ كنت أظن القارب أحادي الزعامة، فإذا به قطب واحد بقرنين، ومن يدري لعل ثمة آخرون لم يُدلوا بعد بأصواتهم.

Scanné avec CamScanner

كم يلزمك من الشجاعة ورباطة الجأش وقوة الأعصاب، لتتحمل ما ترى في ظلمة الليل والآفاق وزحمة الحصار بين الجفاء والماء.

كنت شاهدا على موت نوال، وعلى الوجدي يشتري حتفه بماله: أدى فتمدى! وعلى قسوة أهل القارب. لأول مرة تمنيت لو ينكشف أمرنا، لو نسقط في قبضة رجال الأمن أو رجال الدرك أو أية فرقة...سأتهمهم بالقتل العمد مع سبق الإصرار والإبحار، بتهريب الناس وسلب الحماس، بنقل المحجوز وأكل أموال "الحراكَة" بالباطل بـــ...بـــ...بـــ...لكنني مُتَّهمٌ أيضا:

- بمغادرة التراب الوطني بدون ترخيص.
- باختراق الحدود الوهمية.
- بالدخول إلى المياه الإقليمية للغير.
- بمحاولة الانتحار بـــ...بـــ...

سعيد بجانبي، تصطك أسنانه فيما بينها، يرتجف غيظًا وضجرا من فعلة العملاق. يفتح فاه لاستنشاق الهواء،(انسدت مسالك أنفه). أمسك بي في محاولة لمغالبة الدُّوَار الذي أصابه، وتقيأ من جديد !

يا إلهي ! ماذا أصابه ؟ خشيت أن تداهمه غيبوبة يُرمى بها في قاع البحر كَسَابقيْهِ القارب ساعتها مثل قبيلة أصابها وباء الطاعون، يتهاوى أبناؤها الواحد تلو الآخر في زمن عز فيه الدواء وعجز الناس. على سطح الماء هناك، تنط أسماك صغيرة ثم تعود إلى الماء تحفره بمناقيرها حفرًا

Scanné avec CamScanner

كأني بها حفار قبور ينتظر الجنائز، تسأله عن عمله فيجيب : " الحركة نائمة " ! يفرح للأموات، فهم مصدر رزقه وحركته !

رائحة العطر تنعش سعيد، هي الدواء الوحيد الموجود.

كيف. يرعوي القزم ومرافقه العملاق بعد الذي جرى ؟

تلاشت خيوط الأحاديث الثنائية والثلاثية، وأخرس فم عباس. وانفصمت عرى التواصل ودفء الجوار في هذا القارب : فتلاطم أيها الموج تلاطم الرعشة بداخلي، غضب أصواتك المرئية، يتفجر كالبركان الأبيض فوق جبال سوداء، وقتامة الظلمة تعبر الأوصال عبور القاطع البتار، يقلب القلوب كما تقلب البور أوائل موسم الحرث. فأينك يا أوائل موسم الحرث؟ يذكرك الرداد فيسيل لعابه، يتحاكى بلذة "خبزة المحراث" تُطهى على شرف البداية، تربط البهيمتان إلى المحراث الخشبي، ويتحلق حولها الأطفال مبتهجين، تكتمل فرحتهم بخروج الأم الحنونة، تحمل بين يديها "خبزة المحراث" الساخنة توزعها على الحاضرين، فينطلق الحرث باقتسام منتوج الماضي أملا في موسم أخصب وأوفر. " كل مشروك مبروك " يرددها الرداد في حنين وشوق ويردفها بقوله : " أما خبزة اليوم فهي غير قابلة للقسمة على عدد صحيح لا ينتمي لمجموعة أصحابها ". ثم يقول : " كثرة بني آدم من غضب الله "

فأجيبه: لكنني سمعت أن أحدهم قال : كل مولود يأتي برسالة تقول: " إن الله لم ييأس بعد من البشر ". فيقول : هو الإله سبحانه، أما أنا فقد يئست ممن يوصد بابه دون جاره. مات "علال" في داره وكان

Scanné avec CamScanner

وحيدا، فما دَلَّهُمْ على موته إلا رائحة جثته المنبعثة من الداخل، ولولا أن خافوا على أنفسهم من الأذى أو التهمة ما أعلموا السلطات بموته أبدا! ما هذا ؟ وسألته عن سر تلك الأنانية الموغلة ونكران الجار فأجاب:

– انشغال الناس بالسياسة !

هكذا هو، أجوبته تثير الاستغراب والدهشة أو الضحك وأشياء أخرى. مع ذلك أحبه، بل لذلك أحبه !

ربما ماتت نوال بسبب انشغال الوجدي بأمور أخلاقية فيها رائحة السياسة ! ربما ذهبا معا ضحية سياسة أصحاب القارب، وربما حدث ما حدث من انقطاع جسور التواصل بين ركاب القارب بسبب تداخل تلك السياسات جميعها، اختلطت الأمور " بْكْراعْ مُشْ ".

لو قال الرداد : انشغل الناس عن جيرانهم بالبحث عن لقمة العيش لكان منطقيا مع نفسه، يشتكي دائما من غلاء قالب السكر و لتر الزيت، ولكن متى كان الرداد منطقيا مع نفسه!؟ فهو تحفة الحكايات والأساطير الخرافية، يشنف بها أسماعنا حتى وقت متأخر من الليل. ولا أنسى ما نسيت حكايته الأسطورية حول لقمة العيش يقول :

"خلق الله آدم وعلمه كيف يزرع فزرع، وكيف يحصد فحصد وكيف يشعل النار ويطبخ فشعل وطبخ، ولما أمسك (بالخبزة) المستديرة الساخنة أحرقته في كفه فأسقطها، وتدحرجت من على ربوة فتبعها جريا وعدوا، ومنذ ذلك الحين لا يزال الإنسان "يجري على الخبز " .

Scanné avec CamScanner

كنا نضحك كثيرا كلما قصها علينا بأسلوبه الممتع وطريقته الساخرة، فعادة ما يُطَيِّبُ بها خاطر عامل يشتكي عناء العمل طول اليوم.

أحسست كأنما طابت خاطري بهذه الذكرى، وهانت علي صعوبة ما ألاقي في سبيل العبور إلى الضفة الأخرى بحثا عن الخبز المأدوم، ولكنني تساءلت في قرارة نفسي :

– لماذا لا أكتفي بالخبز الحافي؟ ألم ينل خبزنا الحافي جائزة غربية ؟ ألم يحثنا صندوق نقدهم على التقشف منذ زمان، و الإبتعاد عما يسبب زيادة الكوليسترول في الدم ؟ ربما !

جميل هذا الحوار بيني وبين نفسي، هو في اعتقادي أصدق حوار، لا مجال فيه للمزايدة إذا لم تتدخل فيه حاسة زائدة، لكن هل نفكر دون حواس ؟ أنا واثق أننا قد نحس دون تفكير ! حوار سخيف، أعلم هذا ولكن إذا لم أحاور نفسي سأنفجر. تقشفنا و تقشفنا حتى طال التقشف كل شيء جميل ! كلمة التقشف هذه ارتبطت في ذاكرتي بأيام الداخلية (داخلية الإمام البخاري بالبئر الجديد) أواخر السبعينات، أذكر يوما ما أنني كنت غاضبا من شيء لا أذكره، صعدت إلى سطح البيت وتمددت على ظهري، فجأة سمعت أبي يقول في الأسفل : أين ولدي ؟ لقد نجح في امتحان الشهادة الإبتدائية وحصل على منحة بالداخلية. زغردت أمي زغرودة إخبار، فانهالت عليها عبارات التهاني من نسوة الدوار. دخلت عالما جديدا يتسم بنظام دقيق : احترام مواعيد الأكل والنوم والدراسة، التزام قواعد وآداب الدخول والخروج. بعدما كنت أهيم في طرقات القرية

Scanné avec CamScanner

وسط كروم التين، حافي القدمين. يضحكني صديق لي وقد أصبح موظفا محترما عندما يقول :

مسكينة زوجتي لقد خُدِعَتْ في؟ لو رأتني صغيرا أجري خلف اصطياد الفراخ حافي القدمين، بقرن طويل من الشعر وأنفي يسيل بالخنب، ما قبلت بي زوجا أبدا ! كانت لنا في الداخلية خرجتان : الأولى لصلاة الجمعة خلف المدير الإمام، والثانية يوم السبت لزيارة الأهل حسب رغبتنا، وهي ثانية تستدعي التقيد في لائحة خاصة. ما يهُمنا أننا حُرِمْنَا وقتها من حصة الموز الأسبوعية، سمعنا أحدهم يتحدث عن التقشف لا داعي لصرف العملة الصعبة من أجل استيراد فاكهة ثانوية باهضة الثمن آنذاك. توالت السنوات العجاف، كنا نظنها سبعا يأكلن ما قُدِّمَ لهن، لكن العدَّ لا يزال مستمرا رغم تكاثر الموز....

همس سعيد في أذني : لا ينقص القارب سوى شريطٍ لتجويد القرآن كي نحس أننا في مأتم بري. لكن المكان غير المكان، والقبور غير القبور، والموت غير الموت، كيف تتواصل الرحلة دون مزيد من الأهوال؟ وما السبيل إلى استئصال شأفة الأحقاد ورغبة الإنتقام.

هل يروح دم الوجدي هدرا ؟

القاتل يقبع في ركن القارب الخلفي، يمتص عودا يغضه بقواطعه. ينفخ صدره في صورة "رعاة البقر " في الأفلام الهوليودية، يحس كأنما يمنح الحياة والموت ؛ يأمر وينهى !

Scanné avec CamScanner

ساقه غروره إلى جذب "رانيا" السينغالية من ظفيرتها، خاطبها بفرنسية خشنة:

Et toi negress, j'ai besoin de toi!

التفت إلينا وهدر: شوفوا كدّامكم !

لم يعد على ظهر القارب رجال ! هذا ما أراد قوله.

(استعطفَتْهُ فلم يأبه لاستعطافها، والقزم ينتشي بما يدور، نظراته تبارك الاعتداء. بدأ القاتل يَتَلَمَّسُ أطرافها وهي تتمنَّع، بكاؤها يخترق المسامع والقلوب.

- دعني أرجوك، فأنا عذراء لا أريد فضائح !
- العذراوات لا يركبن القوارب ! ربما يُكتب لك مولود مني، يذكرك بهذه الرحلة العجيبة، ولا تنسي أن تسميه "قارب".
- من فضلك لقد أعطيتك المال، اتركني !
- المال ليس كل شيء في الحياة، ألم تتعلمي ذلك في المدارس ؟
- بل تعلمت أن الدرهم الأبيض ينفع في اليوم الأسود، وقد أعطيتك ما طلبت
- وأنا أقول : الفتاة السوداء تنفع في الليلة الباردة (يضحك بعجرفة)... سعيد بجانبي يتحرك حركة غير عادية، يمد يده

Scanné avec CamScanner

نحو ساقه، لمحت وميضا خاطفا، استل سكينا من جوربه الأيسر، أمسكت بيده، وهمست في أذنه :

- ماذا تنوي فعله ؟
- لا شيء ستعلم فيما بعد !
- ربما كانوا أكثر عددا مما نعلم، فيرمون بك في البحر.
- لَأَنْ أُرْمَى في البحر خير لي أن أقبل إهانات هذا المتكبر القاتل.

قلت في نفسي : ماذا لو تمكن منه سعيد ؟ إن كانوا أكثر من اثنين انقلب القارب إلى مسلخة، وإلا نجونا من بطش العملاق.

أخذ القاتل ينزع ملابس رانيا، غير آبهٍ بتوسلاتها، انقض عليه سعيد بطعنة في ظهره، أرسل على إثرها صوتا يشبه خوار ثور صريع، وقف واستدار فعاوده بطعنة في بطنه، وصاح التازي : وهو يدفعه إلى قعر الماء : الله أكبر ! قتل السفاح، قتل المجرم ! وردد معه الآخرون إلا القزم، يباركون انتقام سعيد للوجدي ولرانيا ولكرامتهم. صمت القزم، فأدركنا أن لا جند له من الركاب بعد موت القاتل، لكننا ندرك أنه الوحيد الذي يستطيع قيادة القارب، فكان علينا أن نقبله، وكان يعلم ذلك أيضا.

أحس القزم بنظرات تنهال عليه من كل جانب، سهامها تخز أعصابه وترمي بسم الارتجاف في ركبتيه، فنطق : أنا بريء من دم الوجدي، أنتم من عالج القتل بالقتل!

Scanné avec CamScanner

سعيد : "رُبَّ كَلِمَةٍ تَقُولُ لصَاحِبِهَا دَعْنِي"، الآن تتبرأ منه، دافع عنك طيلة الرحلة فخذلته.

التازي: وماذا كنت تنتظر يا قزم ، أن ندعه يهتك أعراضنا ويمثل بجثثنا ؟ أم نقدمه لعدالة قاربك؟!

سعيد : الأَجْدَرُ بنا تقديم القارب كله للعدالة !

القزم : افعلوا ما بَدَا لكم.

يا إلهي ! ثلاثة قتلى ونحن في منتصف الطريق !

جفف سعيد ما تطاير من دماء السفاح على وجهه بأطراف سريدته المنزوعة، عاد إلى مكانه، بينما تكفكف البنات دموع الفتاة السينيغالية المرعوبة، أية محاكمة؟ يوما ما تجرأ الرداد على دخول قاعة المحكمة، وفي المساء حكى فأطال: صورة ميزان بكفتين، وفوقها آية كريمة تقول :

"...وإذَا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"، ومجلس القضاة يتوسطهم الرئيس، على يمينه ممثل النيابة العامة وعلى يساره كاتب الضبط وعون المحكمة واقفا ينادي أصحاب الشكاوى؛ وقفص الإتهام يتناوب عليه المنادَوْنَ بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء أجدادهم، ويبقى المتهم مكبلا إلى أن تثبت إدانته فيسجن أو تثبت براءته فَيُخلى سبيله! جلست في القاعة أنتظر منطوق الحكم في ملف تعويض عن حادثة سير مؤلمة، ذهب ضحيتها قريب، فبعد تأجيل الحكم للسنة السابعة على التوالي، حكمت المحكمة لأرملته وأبنائه الثلاثة بمبلغ زهيد. لن تنال منه إلا ثلثهُ بعد أن أفلست شركة التأمين، وأخذ المحامي أتعابه دون

Scanné avec CamScanner

مراعاة شرط الإفلاس وهو يقول : كثرة الحوادث تُضعِف التعويضات، آه لو كان زوجك موظفا محترما براتب محترم !

- الأرملة : سبحان الله، قيمة الإنسان مدخوله الشهري أو السنوي أو.....!
- المحامي : هذا ما يقوله القانون !
- الأرملة : لم يعد الناس سواسية أمامه ؟ اللهم إن هذا منكر!

رفعت الجلسة . المحامي يبرر الحكم الصادر الذي عاكس مزاعمه الأولى :

كانت المسكينة تبكي وتقول : لا أريد دعاوى،أريد زوجي، أريد زوجي !

والمحامي يرد عليها : أرأيت إن مات بجانبك في ركن البيت، هل كنت تستفيدين شيئا ؟

كانت جنازته على غير المألوف، مشى فيها العشرات مهللين مصلين على النبي، تخالهم من كثرتهم يمشون في جنازة ثري، ولكنهم يمشون في جنازة أفقر الناس مالا. جمع حوله قلوب الناس على اختلافها، خلوقا، خفيف الظل ذا نكتة ودعابة، لا صداقة له مع الدرهم ولا مودة، لا يرى أبعد من طبق يُقدَّم إليه في هدوء ودعة. كل يوم يعزف على أوتار قصبة الصيد، يرمي بها في جوف الماء قرير العين، يثوي على صخرة

Scanné avec CamScanner

عالية بحذائه المطاطي، ويسيح بنظرات حيث تسبح الصنارة، وحيث لا تبقى للزمن حدود !

كلما كنت أفتقده، أقصد الشاطئ، أراه من بعيد، لايبرح مكانه في حركات هادئة لا تكاد تُرى. ونادرا ما أجرؤ على اقتحام خُلوته المائية فأنادي :

- كيف حالك يا ريس ؟
- أهلا وسهلا، تفضل !
- أين أتفضل، الماء يحيط بالصخرة من كل جانب ؟
- انتظرني إذن.

ثم يجمع قصبته، ، يمسك القصبة بيده، ويغطس رجليه في الماء الذي يصل إلى أعلى ركبتيه، ثم نمضي صوب "الكاريان" حيث كان يسكن، أمشي بجانبه، وبين الحين والآخر يستوقفه هذا وذاك في أحاديث ود واستلطاف ينادونه "الريس حمودة". كلما سأله أحدهم عن حصيلة اليوم من السمك فتح حقيبته، وتحدث عن أنواع أسماك فتوسع في الحديث، يعرفها كما يعرف أصابع يديه، كيف وأين ومتى وكم ومن أين وإلى أين!؟؟؟؟ حديثه يشنف السمع ويحبب القلوب في مخلوقات البحر لاحظ دهشتي وإعجابي بأسماء الحيتان والأسماك، فقال: من العيب أن تجاور البحر، ولاتتعرف على ساكنته! قلت: بل أعرف السردين! قال: "معرفة

Scanné avec CamScanner

على قدر الجيب". وأخذ يسرد علي أسماءها": "فهناك ...الدرعي والتن والأسقمري والبربوني والشابل والشبوط والأخطبوط والإربيان والبلم والزمير والسارس والشوش والسلور والتخس والتروتة والأقريدس والأنكوش وأبو طبق وبلح البحر وشكب البحر وحصان البحر وحريش البحر وجراد البحر وسرطان البحر وثعلب الماء وكلب الماء والجري والجلاخ والزامور والزنجور والشلب والشطف وزمارة البحر والشحلف والبقلة والبكورة وسمك موسى وسمك الطين وسمك الترس والسلمون والأبراميس والعجلس وعغجوز البحر وعنز الماء والغدس والغبر والغجوم واللط والفرخ والفهقة والنجم واللوز واللمندة والمرجان والقباب والقجاج والقرقور والغراء والميدع والميج والنجار والكحلاء والكندارة والهق...إلخ

كنت أراه جاثما على الصخرة منفردا لفترات، فأشك في قدرته على الاختلاط بالناس وإمتاعهم، لكنه عكس مارأيت، يقف أمام دكان "باحماد" فيغمز من قناته وهو يتحدث إلى شخص آخر، وباحماد يفهم ويتبسم:

- عندي قصبة واحدة آكل منها كل ما تصطاده، وبعض الناس لديهم عشرات القصبات(يقصد خبز الباريزيان الطويل) ولا يقربونها رغم نحافة أجسامهم..
- باحماد: قل لي يا صاحب القصبة البرمائية، ماذا ستفعل إذا خضع الصيد بالقصبة للضريبة؟

Scanné avec CamScanner

- الريس: أصطاد الأسماك المعلبة من دكانك(يضحكون)
- قلت لكم(...) إن قصبة الريس محمود فيها الحكمة!
- تلك عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على جوع بطني، ولي فيها مآرب أخرى!

نمضي في طريقنا فيستوقفه شرطي المرور ضاحكا : ريس حمودة "هل ثمة أسماك ؟"

نعم لكنها تخاف من البوليس ! (يضحك الشرطي)

نمضي فينادي أحدهم: تعال يا ريس حمودة !

لدي ضيوف، أجل الموضوع إلى جلسة مقبلة !

سألته، من يكون هذا الرجل فقال: إنه الأستاذ عاطف المحامي.

وكأني به يعرف المدينة بكاملها.

وهناك بجانب المسجد حلقات لعب الورق، ما إن رأوه حتى قاموا يطلبونه للجلوس، اعتذر بوجودي ضيفا عليه، فَرَجَوْنِي أن أجالسهم قليلا، وأَدَعَهُمْ يستمتعون بصحبة الريس محمود، بعث بالأسماك إلى بيته ثم جلس. ناولنا أحدهم كأسين من شاي نصف بارد، فتوالت أحاديث الأُنْسِ حتى سمع صوت المؤذن فقام للتو.

في طريق عودتنا إلى البيت، بدا عليه الإعياء، لمحنا شيخا يقود دراجته العادية راجلا، يتمايل من فرط السكْر، اتجه نحوه واقتاده إلى بيته. قلت له: إنك مُتعب ياريس! أجابني: ليس أكثر من هذا المبتلى، دخل الريس محمود على زوجته، كانت غاضبة رغم محاولتها مداراة

Scanné avec CamScanner

ذلك، قَدَّمَتْ لنا طعام العشاء، فأمسك بيدها برفق: غِبْتُ عنك يوما كاملا سأعوضك عنه بيومين، فلا تقلقي! انتزع منها ضحكةً أعادتِ الدفء إلى المجلس. بُعيد العشاء حدثني بحديث الفقيه في وليمة أحد الجيران فقال:

"بينما كان الفقيه يحثنا على تقوى الله، أطال في دعوتنا إلى عدم الانشغال بالدنيا والطمع في استزادة المكاسب المادية، فبادره أحد التجار بسؤال: إذن أيها الفقيه، لا داعي للسعي في طلب المال كما فهمت؟

ضحك الحاضرون، وضحك الفقيه ثم قال: لعمري، لقد أعجبني قولك! لأنك لم تُسِرَّهَا في نفسك كما فعل الآخرون، فكلنا يحب الدنيا ويعمل جاهدا لامتلاك المال. ولكنني سأعطيك مثالا يوضح قولي، ويجنبك فهمك السيئ. عليك أن تكون مثل السفينة في البحر، لا تستطيع الحركة خارجه، وإذا دخل جوفها الماءُ غرقت.لا تدع المال يتغلغل إلى قلبك فيغرقك، واجعله مطيةً لقضاء مآربك!..

رحم الله الريس محمود، عاش زمانه خارج زمانه، عاش مثل سفينة لم يلجها الماء قط.

نظرت أسفل القارب، جاء دوري لإخراج الماء الذي تجمع فيه بسبب ارتفاع الأمواج، أخذت الإناء وشرعت أعيد الماء إلى البحر، وأنا أتساءل في قرارة نفسي: إلى متى يصبر هذا القارب على حملنا، وكُلُّنَا سفينةٌ غمرَ جوفَها الماءُ المالح!

Scanné avec CamScanner

Scanné avec CamScanner

السيبة البحرية

همس التازي في أذني: لله دَرُّكَ يا أخي، تمثل بلدية القارب في أعمال النظافة بامتياز!

- لا تُذَكِّرُني، أهذا وقت مزاح؟!

- ليست نهاية العالم، بإمكانك الكف من ذلك، إننا في "سيبة بحرية"

إيه أيها الرداد، حكايتك عن زمن "السيبة" لا تفارق مخيلتي، يومها كانت السيادة للقوي كما حكيت لي، يوم اشترى لغماتي، وكان واحدا من جبابرة زمانه، بندقية أراد تجريبها، فأشار عليه المقربون بكلب، لكنه أصر أن يكون بشرا من الرعاع، أتوه بمعدم شارذ، لا أهل له ولا عشيرة، أفرغ فيه الرصاصة فأرداه قتيلا، وكذلك تهلل وجهه واستبشر لنجاعة سلاحه. قلت : كان ذلك أيام السيبة، لكن الرداد يصر على القول : "السيبة هي الفيتو بلغة العصر".

- السيبة عندي قضية أخلاقية؛ من يحتاج إلى رادع كي لا يقتل فهو قاتل وإن لم يفعل!

Scanné avec CamScanner

تحرك القزم من مكانه وقال: اقتربنا من الضفة الأخرى، لا تقلقوا! وألزموا أماكنكم.

تبدلت لهجته. بدا في صورة حمل وديع يتحدث وكأن شيئا لم يحدث، ولكنه ذئب قد يمكر في أية لحظة.

وهمس سعيد أيضا في أذني :" ما رأيك أن نصفي معه الحساب عند وصولنا ؟"

– ماذا؟ هل ألفت سفك الدماء؟ لا نريد مزيدا من المشاكل، دع القزم يعود من حيث أتى، فلعل الله يكفينا شره.

– صحيح، لنفكر فيما هو أبعد من ذلك.

– قالت فاطمة: أيها القزم تكاثرت الأضواء وأصابنا تعب شديد. كم يلزمنا من الوقت للوصول؟

– قريبا قريبا، ولكننا لن نسير باتجاه الأضواء، سنحط الرحال بشاطئ بعيد عن المدينة تجنبا للمشاكل.

– وهل هي أماكن آمنة؟

– عليكم أن تبقوا مجتمعين حتى يلوح الفجر، ثم تفرقوا بعد ذلك، قطاع الطرق في كل مكان!

– هل لديك معلومات عن المسالك هناك؟

– كفى ثرثرة، مهمتي أن أُوصِلَكم، بعدها تدبروا أموركم.

– صحيح، لو أوصلتنا دون مشاكل أخرى، ستكون قد أديت مهمة أكبر من قامتك بكثير!

Scanné avec CamScanner

- الإنسان بعقله لا بقامته يا....!

- أنا أمزح معك. لاتقلق!

- هكذا أنتم، تَسْلِقُونَ الناس بألسنةٍ حداد، أشحة على الخير، وتُنهونها باعتذار سخيف.

تدخل التازي : والله ما تاهت المراكب إلا بغفلة السائقين، وما غفل السائقون إلا بحديث كهذا. قال عبدو المراكشي (يريد أن يطفئ لهيب الحوار الدائر).

في جامع الفناء كنا نسمع أكثر مما نتكلم. كان الراوي ممثلا بارعا، أستمتع بحركاته وسكناته ورنات صوته أكثر مما يشدني المحكي، أجلس إليه ساعات طوال، كنت أحبه، وأحب العربي، الرجل الأسمر، ذي الهيئة الحسنة، صاحب الجلباب الأبيض والطربوش الأحمر ذي الأهداب السوداء، قيل لنا إنه كان يتحدث أربعة ألسن، رجل مَهيب، يُخفي داخل طربوشه أسرارا يبوح بها لأفواج السياح بلغة لا نفهمها، إذا وقف بجانب السَّقَاء متحدثا ومرشدا تكتمل لوحةٌ فنية رائعة، وإذا ركب عربة الكوتشي إلى جوار السياح، أُحسُّ بفرحة داخلية تسري في عروقي. لا أريد أن أنسى تلك الصور الرائعة، لا أريد أن أصدق أن العربي تعرض لاعتداءات طفيلية من قبل مرشدين لا جلباب لهم ولا طربوش، لا أريد أن أصدق أن قِربة السقاء أصابها الجفاف وتحول صاحبها إلا بائع خردة، لا أريد أن أصدق أن عربة الكوتشي تستوقفها الأعطاب، وتتعرض أفراسها للهزال....

Scanné avec CamScanner

سكت المراكشي، فخيم صمت رهيب وسط هدير الأمواج العاتية... أكره هذا الصمت! أريد أن أسمع كلاما يطرد هذا الخوف الجاثم على صدري والسابح في دمي. أنفاسي مشدودة، تتوق لمعرفة نهاية هذا الشريط المرعب، إحساس غريب سبق أن عشناه صغارا في ردهات السينما، أفلام مثيرة تشد عيوننا وأحاسيسنا شدا، يهدئ من روعنا "با عبد الله" وهو يقول : "لا تخافوا"الْولْدْ" لن يموت ! "أينك يا " با عبد الله " ؟ شتان بين ظلمة قاعة السينما الآمنة رغم دغدغات الفئران والصراصير لأصابع أقدامنا، وبين ظلمة بحر يزمجر كالأسد الجائع.

إدريس ابن قلعة السراغنة، ظل واجما طول الوقت، لم ينبس ببنت شفة رغم تعاقب الأحداث والأوقات، حاولت إخراجه من دائرة صمته المريب فقال :

– وما جدوى الكلام في عز الظلام، دعني الله يرحم أباك !

– لانفعل شيئا دون أن نتكلم !

– وهل فعلنا شيئا بالكلام ؟ الكل يتكلم، في الأسواق والأبواق، من دكان الحلاق إلى قبة البرلمان، كلام في كلام...

– لقد فعلوا شيئا كثيرا للبلاد.

– وهل فعلوا شيئا للعباد أمثالي؟ لو كفانا المجلس البلدي شر الحفر الطرقية لما كنت معاقا. الأفضل لي أن أبقى صامتا ! أن أرحل كي أنسى !

Scanné avec CamScanner

– تنسى ماذا؟

– أن يكون قد حصل كل ذلك التحول في حياتي، أن يتحول الحلم الجميل بالغد الرغيد إلى وهم عريض يلفه الإهمال والتيه. آه لو ترتد عجلة الزمان ! إلى الخلف !

– عجيب أمرنا والله، نَحِنُّ دوما إلى الأيام الخوالي، تبدو لنا في الحاضر جَنَّاتٍ لا تتكرر أبدا !

– حتى نغمة الكمان لم يعد لها نفس الواقع بآذاني الكثيرة، لم تعد لي سوى أذن واحدة.

– ربما لم يتطور ذوقك يا أخي!

– ربما، الأفضل لي أن أصمت

Scanné avec CamScanner

Scanné avec CamScanner

ينتفض القزم فيخيب

ماذا يفعل القزم؟ الكل يراقب حركته الغريبة، خَفَّض من سرعة القارب، أخذ مجدافا طويلا، رمى بطرفه في الماء، غير آبه بسؤال أو تأفف... لحظة ! لقد اصطاد القزم معطفا كان يطفو على سطح الماء، كيف رآه في تلك الظلمة الحالكة ؟!!

هذا القزم يخيفني.

طفق يبحث في جيوب المعطف، يداه ترتجفان طمعا، رمى بالمعطف في صندوق القارب حيث يجلس، وهو يتمتم: "ضَحِيَّة مْزْلُوطْ"

آه لو يتحدث إلينا بوضوح! قزمٌ في كل شيء، حتى في كلامه.

استدار نحونا وأخذ يتكلم، وكأني به يفند مزاعمي:

– وماذا تعرفون عن البحر؟ لا شيء! كم مرة اصطدت جثة طافية بمجدافي هذا وجردتها من ثيابها ثم ألقيت بها في البحر ثانية.

– يا لك من قاس لا يرحم، تجرد ميتا من ملابسه ؟!

– بل أجرده من "وسخ الدنيا" (يقهقه)

– تجريده من ملابسه يستدعي غُسْلَهُ وتكفينه أيها الأحمق.

Scanné avec CamScanner

– البحر يتكفل بالغسل، أما الكفن فلا جدوى منه في قبر مائي؛ وهل قالوا لكم "عِنْدِي قيسارية الحفَّارِي" !

إني أعجب منكم كيف تجرؤون على الحديث، بل على مجادلتي! ما عهدت هذا فيمن سبقوكم على ظهر هذا القارب. كانوا يُمضون الوقت صامتين يسمعون و ينفذون. أنتم أول من تجرأ على الثأر من مرافقي، بل قتله. لا شك أنكم تنعمون بنشوة النضال: لكنكم تحت رحمتي، وبدوني لا تستطيعون امتلاك ناصية هذا القارب الهائم، جاء دوري للانتقام منكم أيها الأوغاد القتلة !

– أين ذلك المتأسلم، صاحب اللحية الطويلة ؟ (في إشارة إلى التازي).

– لم أر أنك تصلي مذ ركبت القارب، أم أنك تصلي بعينيك كالمريض؟ أم أنك لا تجد في كتب الفقهاء ما يشير إلى "صلاة الحراكَة" (يقهقه) أنا أعلم أنك لا تفهم من الدين إلا تلك اللحية والقميص وعصا الأرك تفرك بها أسنانك، ألم تعلم أن النفس بالنفس ؟!

– التازي: كفاك حمقا واستهتارا، ودع الليلة تمر بسلام !

– أريد رأس أحدكم أقتص بها لصاحبي، وإلا رميت نفسي في البحر!

– رباه! إذا فعلها هلكنا، وما ندري لعله يلتمس بذلك فرارا مدبرا ! يجب ألا ندعه يفلت منا، هكذا همست في أذن سعيد.

– وقف سعيد أمام اندهاش الجميع وقال:

Scanné avec CamScanner

– أنا من قتل صاحبك أيها القزم. هؤلاء لا ذنب لهم. سألقي بنفسي في اليم، فأنا المذنب الوحيد!

أكبر الجميع هذه الشهامة في سعيد، فأخذوا يستجدون عطف القزم الذي يقف على حافة القارب، لعله يضرب عنه صفحاً، ويقبل استئناف الرحلة من جديد.

أوقف القزم حركة المحرك، وأخذ يتفحص وجوهنا بعدما أضاء مصباحه الكبير، ثم قال:

هي كلمة واحدة، إما أن تكونوا معي فأُوصِلَكُم إلى ما تقصدون، وإما أن تكونوا مع هذا القاتل فتهلكون جميعكم.

قال سعيد: هل لي بحبل أيها القزم ؟ ارْبطُوا به يداي ورجلاي قبل الإلقاء بي في الماء، وهذا طلبي الأخير!

رد القزم بلهجة الأفلام المصريه :" غالي والطلب رخيص !"

القارب ساعَتها مزرعةٌ سنابلها أعناق تطاولت لترى ما يدور، دون أن تستوعب ما يدور. تغيرت المفاهيم والأحكام !

كان الرداد يردد في مثل هذه المواقف "حْكَامْ مِّيسَى عْلَى الْعَوْنَاتْ"

تذكرت قول الشاعر:

تبين لي أن القماءة ذلة * وأن أعزاء الرجال طيالها.

يبدو أن الشاعر كان طويلا فمدح نفسه، ويبدو أنه تورط في موقف ما مع قزم كهذا، وأكيد أن ذلك لم يكن على ظهر قارب كهذا، فلا أثر لقوارب الموت في المأثورات.

Scanné avec CamScanner

نكص القزم على عقبيه، أخذ بزمام حبل كان يخبئه في صندوق القارب، أسدل طرفه باتجاه سعيد، كأني به الشانق يلف الحبل على رقبة محكوم بالإعدام، هو الخصم والحكم، هو القاضي و المنفذ....

هذا القارب جزيرة معزولة عن العالم بقوانينه الربانية والوضعية المتعارف عليها، انحنى سعيد، أخذ الحبل يحزم طرفه الآخر ثلاث مرات، حتى صار كاللكمة في رأس الذراع، سحبه نحوه كاملا، وأداره حول ذراعه كمن يجمع الرشا من غيابات جب عميقة القرار، والقزم ينتشي بوقفته البطولية، ينتظر مصرع سعيد، البنات ينتحبن مستجديات عطف (القاضي) دون جدوى، كَبَّرَ سعيد ورمى بالحبل على شاكلة رعاة البقر، استدار الحبل حول خصر القزم، فلفه لفا محكما، وبسرعة خاطفة سحبه نحوه كما تُسحب السمكة من الماء وهو يقول: وقعت أيها الحقير ! ستقودنا مكبل الرجلين كما نشاء إلى حيث نريد.

أدرك القزم أنه وقع في المصيدة، لم يكن يتوقع تلك الحركة المتقنة من سعيد؛ فلم يجد بدا من الصمت واستئناف الرحلة، وسعيد خلفه،يضربه على قفاه بين الحين والحين مرددا: وقعتِ أيتها القشة اللعينة، كدت تقصمين ظهر هذا البعير العائم! تهلل كل من على القارب، واستبشروا بسعيد قائدا ومُخَلِّصا، لكن القيادة الحقيقية لا تزال في ذهن القزم، هو الخبير بأمور البحر، والعارف باتجاهاته ليلا ونهارا. هو إذاك مثل ربان طائرة مقرصنة، يقودها والمسدس على رأسه !

أي زمان وأي عالم هذا؟

Scanné avec CamScanner

غدر، قرصنة، سرقة ، قتل ، تدمير...

رحم الله زمانا في بلدتي، لو أصبح ثقب في جدار منزل أحدهم، يتجمع الرجال والنساء مستنكرين مُصَبِّرين ، وقوالبُ السكر في أيديهم، لا يبرحون المنزل المسروق حتى يجمعوا لصاحبه مبلغا من المال يعادل أو يفوق قيمة المسروق. وإن تاهت نعجة أحدهم، تجند صبية القرية ورجالها باحثين عنها في كل هضبة،وتل، والنساء مجتمعات على ربوة حذو القبيلة ينتظرن عودتهم، وما هي إلا لحظات حتى تُطْلِقَ "مّي فاطمة" زغرودة الفرح مشيرة بيدها إلى عائد يسوق النعجة قدّامه.

مّي فاطمة يا مّي فاطمة، رمز الحضور النسوي البدوي في الأفراح والأتراح، اسم يتردد على ألسنة الصغار والكبار من أهالي البلدة، سليلة الفقيه سي عامر رحمه الله، ذات تجربة ومراس، بلغَتْ بجُرْأَتِها شَأوًا لاَتتطاول إليه أعناق النساء، يقصدنها في المشورة في كل الأمور،فهي "القابلة" الميمونة، والطباخة الماهرة والمغنية البارعة و "العراضة والبراحةُ" في الأعراس، وتغسل الموتى من النساء، فحازت بذلك حب الجميع. كان مجمع " حائط الجامع " هو إذاعة البلدة، تسمع فيه تعاليق الرداد وأقرانه عقب كل مناسبة، فيزداد المديح والإطراء في حق مّي فاطمة. لقد كانت أشهر من في القبيلة بين الرجال والنساء، نموذجا للمرأة الناجحة. لازال الرداد يعتبر إلى الآن أن مّي فاطمة هي أول امرأة دخلت قبة البرلمان، هكذا يفكر، كان يقول :

لو رشحت مّي فاطمة نفسها، لانتخبها الجميع !

Scanné avec CamScanner

دخلت النساء البرلمان، ووقعت تحولات كثيرة دون أن تتحول مكانة مَي فاطمة في قلوب من عرفها أو سمع عنها، رغم أنها أصبحت تمشي بصعوبة بالغة تصارع داء الروماتيزم العنيد !

أمر سعيد القزم بالإجابة عن سؤال بات يؤرقنا :

- كم يلزمنا من الوقت للوصول إلى الضفة الأخرى ؟ لقد أخذ منا التعب مأخذين !

- لن أخبركم قبل أن تفكوا وثاقي وتؤتوني موثق آمان بعد الوصول

- صفعه سعيد على قفاه قائلا : ليس باختيارك أيها الوغد الحقير، أخبرنا بسرعة.

- لقد أشرفنا على الوصول، فما أنت فاعل بي بعد ذلك ؟

- لو أوصلتنا دون مشاكل سوف أُخلي سبيلك. كنت وأنا أتابع هذا الحوار بين سعيد الطويل والقزم، كأني بين يدي الرداد يحكي قصة الدكالي والعبدي ونزاعهما المفتعل حول البئر، تلك القصة التي تحولت إلى نزال ساخر بين أهالي عبدة و دكالة. وكنت سألت الرداد عن سر تلك العدواة بين قبيلتين جارتين فقال:

" بْلاَ عْدَاوَة مَا تْكُونْ مْحَبَّة " إنه صراع أخوي مبعثه محبة التجاور والتزاور، والتناكح والتناصح. تلك والله نزالات تتم في عز الانتشاء بكؤوس الشاي المنعنع اللذيذ، شايه وسكّره ونعناعه من زاد الدكالي، ونسمته من نخوة العبدي في جلسته الأرجوانية، يأخذ بزمام البراد، يسقي الحاضرين حلاوته، ويسقي الدكالي حسرةً بنكته المختارة المدبرة.

Scanné avec CamScanner

هيهات أن يكون القزم ذا نخوة عبدية أو شهامة دكالية يتحدث عنها الرداد بحسرةِ مَن افتقدَ مجالس الأنس والنكتة، وهو عائد من السوق الأسبوعية، يرثي سابق الحال، ويلعن حاضر المآل، يلعن سوق الكاذبين واللصوص والمشعوذين، والمشترين بأَيْمَانهم سلعا رخيصة والمطففين في الكيل والميزان يقول :

اشتريت كيلوغرامين جزرا، ثم أخذتهما إلى ميزان جزار صديق، فتبين لي أن المقدار ينقص عن الوزن المطلوب، عدت إلى الخضار ألعن سارق المكيال والميزان، فتدخل الناس لإسكاتي عن قول الحق بَدَلَ توبيخه. نظرت إلى وجوههم، ففهمت حينها لماذا يوجد مثل هذا الخضار في مثل هذه السوق وغيرها . وأمام صمتي دافع الخضار عن مكاييله بقوله:

- إن المكاييل الحديدية تتآكل بفعل الصَدَإِ وهذا سبب نقصانها.
- قلت ساخرا : الذنب ليس ذنبك إذن، بل ذنب هذه المكاييل الملعونة !
- نعم إنها ثقيلة الوزن، لدي غيرها، لكنني لا أحب كثرة المكاييل.

غادرت المكان وأنا أردد مع نفسي : اللهم كيل بمكيال ناقص أو كيل بمكيالين كما هو معمول به في هذا العالم.

Scanné avec CamScanner

يا دماغي المركب من ديباجة الأخلاق الربانية، ثمة أقوياء في هذا العالم أرادوا عولمة كل شيء : الأخلاق والأذواق والأشواق والأنفاق والأنساق والأبواق والأرزاق والأحداق والآفاق ... إلا الأوراق ! وأية أوراق؟

أوراق العبور إلى الضفة الأخرى ؟ أم أوراق كاتب مجهول مثلي ؟

أم أوراق شعوب وقبائل (لتعاركوا) ؟ أم أوراق قزم مكبل ؟

وكأني بسعيد يقرأ ما بمخيلتي، ويطلب من القزم أوراق هويته. يومىء القزم بوجودها في جيب سرواله الخلفي. يسحبها سعيد بأصبعيه، فإذا به ذا جنسية مزدوجة .

قالت رشيدة : عجيب أمره، كنت أظنه بنصف هوية، فهو بأفعاله لا يستحق الانتماء لوطن، ولا حتى لقبيلة . ولكنها لَعْنَةُ زمن القوارب !

يا سَوَادَكَ أَيُّهَذَا الليل الطويل ! ويا قَتَامَتَكِ أيتها الظلمة الحالكة !

أي سواد يوازي هذا السواد الفاحم ؟ ولا حتى سواد الغراب ! مرة سألني صديق عزيز : لماذا لم نعد نرى الغراب كما كنا أيام الصبا ؟ كنا نراه مرة بعد مرة، يحط على جيفة، يقتات منها ويطير إلى حيث لا ندري. قلت: ربما أدى الغراب مهمته فوق الأرض ورحل، وربما تكاثرت الجيف في عصرنا... المهم أننا نرى الغربان الآدمية تبحث في الأرض كل يوم لتواري سوأة الشهداء والمستضعفين والمقهورين...

تململ أحمد من فرط الإعياء، بطنه المنتفخة تتمايل وسط القارب، والقارب يتمايل وسط الأمواج . التفت إليه سعيد وقال مازحا : مهلا

Scanné avec CamScanner

أيها الرشيق العزيز، بطنك تذكرني بالحاج عيسى الجمَّال . رجل ثري كان يسكن حينا، وغريب عن حينا في كل شيء . يخرج كل صباح من باب منزله . يدير محرك سيارة "المرسيدس" العريضة الطويلة، يخرجها من المرآب "بالمارشاريار" ويخرج ذراعها ليسرى من النافذة، ويومئ لأحدنا ونحن صغارا نترقب إشارته فنتسابق نحوه عَلَّنا نظفر بمصروف يتبقَّى من ثمن علبة السيجارة. نشتريها له من دكان باحماد. كان باحماد يدرك أن ما أرجع إليه من مصروف عائد إليه لا محالة ولذلك كان يقول لنا : حلال عليكم يا أولاد! إذا أردتم حلوى أو لبانا أو لعبة، لا تترددوا في طلبها مني، أنا في الخدمة!

باحماد لا يسأم من جمع القطع النحاسية الصفراء من الأطفال أبدا. كان الحاج عيسى يأخذ منا علبة السجائر، ويَصْرِفُ وجهه عن بقية المصروف دون تعليق، يراقب سخونة المحرك بنظرة نفهمها من انحناءة قفاه صوب لوحة القيادة، ثم يمضي في اتجاه نجهله تماما. بعد عودتنا من سفر قريب، فوجئت وزميلي أن الحاج عيسى ذات صباح، يخرج من سيارته بصعوبة، ويصب جام غضبه علينا دون أن نفهم ما يدور، تركنا المكان فرارا من سطوته، وتركناه يهدر قبالة عبدو الحلاق، يحكي له سر غضبه . مضى إلى حيث يمضي، وعدنا إلى حيث كان الحلاق يضحك بشدة وينظر إلينا نظرة إعجاب وهو يقول:

" حسنا فعلتم يا أولاد حسنا فعلتم" !

Scanné avec CamScanner

- ماذا فعلنا ؟ لم نفعل شيئا

- لا تخافوا لا تخافوا، فإن ذلك " الجِلْدَة " كُرْشْ الْحْرَامْ " يستأهل ذلك ! كيف لم تفعلوا شيئا ؟ ألم تأخذوا منه ورقة نقدية لشراء السجائر كالعادة ولم تعيدوا له شيئا هذه المرة ؟ لا سجائر ولا غيرها ؟

- كلا لم نفعل ذلك .

- إذن فعلها غيركم أثناء غيابكم.

انخرطنا جميعا في الضحك رغم إحساسنا بخيبة أمل في الحصول على نقود من الحاج عيسى كالمعتاد. وبدا الحلاق سعيدا بما جرى، وأخذ يخبر الزبون عن الضحية : " إنه سجان متقاعد، راكم الأموال من السجناء حتى أصبح (خَانْزْ فْلُوسْ)، وإذا حلقتُ شعرَه لا يعطيني أكثر من خمسة دراهم، ملعون بن ملعون..

ارتطم القارب بموجة عاتية فصمت سعيد، وانخرطنا في زخم الرحلة، كأني بتلك الموجة تحتج غاضبة وهي تقول :

كفى تيها وخيالا أيها الغرباء ! الأفكار والأهوال تتعارك في أذهاننا كالثيران في حلبة الصراع. كأني بهذا العقل الرابض فينا يبحث عن محطات آمنة في الماضي: فالحاضر أقسى من أن نفكر فيه أو نحياه رغما عنا فنقول:

سلام عليك أيها الليل السابح بين السماوات والأرض !

سلام عليك أيتها الظلمة الحالكة الساكنة في أعماقنا !

سلام عليك أيها البحر الباسط كفيه وفكيه للأفلاك والقوارب !

Scanné avec CamScanner

وحرام عليك أيتها النفس الأمارة بركوب الليل والظلمة والبحر !

وغداً، لو عبرنا إلى الضفة الأخرى، قد يفلح منا من يفلح في امتلاك سيارة عائدة إلى " البلاد من الخارج " كما فعل ابن فلان... وقد يفلح منا من يفلح في بناء عمارة في حي كذا كما فعل ابن علان... وقد يفشل منا من يفشل في العودة حتى، فيغوص في وحل المعاناة مع الأوراق والأشواق ... وقد... وقد... وقد...

لكن لا أحد منا سينجو من ضغط الكوابيس المرعبة في لياليه القادمة، فلا أحد منا يستطيع نسيان الموت كما رآه بأم عينيه في صور متعددة...

باخرة أخرى تعبر البحر الأبيض المتورط. القزم يوقف محرك القارب الذي صار مثل "دواح جدتي" كانت تضع فيه أخي، وتحركه برفق حتى ينام، لكن يد البحر أقوى وأعنف بكثير من يدك أيتها الجدة الحنونة . كل العيون جاحظة باتجاه ضوء الباخرة، القزم يهمس في أذن سعيد : " إنها قادمة من الشمال وربما تتجه نحو ميناء سبتة " .

أمسك سعيد برقبة القزم وقال:

- أَعِدْ ما قلته أيها القزم ! إذا كانت الباخرة تتجه نحو سبتة فإننا نسير في نفس الاتجاه أليس كذلك ؟ إلى أين تأخذنا يا عدو الله؟ !

اندهش الجميع، لكن القزم تدارك الأمر بقوله : أنتم لا تفهمون المسارات البحرية، إننا نسير في الاتجاه الصحيح . عاد الهدوء الحذر إلى القارب من جديد، بينما كانت الباخرة تبتعد عنا شيئا فشيئا .

Scanné avec CamScanner

Scanné avec CamScanner

في حضرة الرداد الغائب

انطلق القارب مرة أخرى بسرعته المعهودة المتثاقلة بين الحين والحين، تحت وطأة الحمولة الزائدة . حتى البحر لم يسلم من الحمولة الزائدة ! رغم أنها كانت السبب في إحداث كوارث عديدة على ظهر اليابسة، كان المعطي صاحب شاحنة لنقل البضائع، يتحدث باستمرار، وهو جالس أمام دكان العربي النجار عن خلافاته الدائمة مع " أصحاب الوقت" حول الحمولة الزائدة. يعد ثمن البنزين وواجب العمال و صوائر الطريق ثم يطرحها من ثمن الرحلة فلا يتبقى معه إلا القليل، لو احترم الحمولة المسموح بها، وهو ما يضطره للزيادة في وزنها إذا أراد أن يأكل "طَرْفْ دْيَالْ الْخُبْزْ" كما يقول . لم يكن الوحيدَ الذي يتحدث تلك اللغة، بل كانتْ لغةَ العديد من أمثاله، تناسبهم الحمولة الزائدة، ولا يناسبهم شيء آخر، كعداد مراقبة السرعة أو حزام السلامة أو ما سواهما. كيف السبيل إلى حل هذا اللغز حقنا للدماء. كان القزم وأمثاله يدركون طبيعة المغامرة، فلا يحسبون للمخاطر حسابا. فلا ضير إن زادت الحمولة أو نقصت. إلهي ! أين يمضي بنا هذا العقل البشري ؟ كان الرداد يردد كلما

Scanné avec CamScanner

ادلهمت الخطوب وتعددت المصائب في القبيلة " كَبُرْتْ عْلِيَّ الْبْلاَدْ " ! كان يقصد ولاشك ضعفه أمام مخاوفه يقول : المرة الوحيدة التي أحسست فيها بالسعادة كانت يوم أحسست بالأمان وأنا أستجيب لأمر الله في المحافظة على الصلوات. كان أمانا رائعا أخرجَني من عبودية القلق على المصير إلى أمان التوكل والتسليم والرضا بخير القضاء و شره. هكذا كان يتحدث .

لست أدري كيف ركبت مغامرة لا أمان فيها و أَدَّعِي البحث عن خيوط السعادة خلف البحار . الكل يتحدث عن سعادة " الجَيْبِ " في هذا الزمان، حتى الرداد يَنعي جملة حفظها من تلاوة القسم الرابع " نام الفقير سعيدا في كوخه بينما بات الغني مرهقا تعيسا يعد ماله "

لو تعلمون كم ردد الرداد من أقوال وحكم ونوادر، وشهادات، وكم استمعنا إليه يعيدها كل مرة كأنما يحكيها لأول مرة، وكثير من الناس يحكون الحكايات لا نُلْقي لها بالا، لكنها من فم الرداد ذات لون خاص، نحفظها عن ظهر قلب، ونستجيب لصوت الحكمة فيها . لست أدري كيف تغاضيت عن تحذيراته من الثالوث المخيف "البحر والنار والمخزن" كنا نخاف المخزن أكثر من النار والبحر ! يذكر أبناء البلدة كيف كانوا يهربون كلما رأوا أضواء سيارة قادمة ليلا، ظنا منهم أنها سيارة رجال الدرك، ويذكر الرداد كيف ترك فردة بلغته في قاعة لعب الورق عندما رأى سيارة " الدْجيبْ " وكيف دَلَّتْهُمْ فردة البلغة على الرداد، وكيف اقتاده رجال الدرك إلى المخفر حيث قضى ثلاث ليال من ألف ليلة وليلة،

Scanné avec CamScanner

يحكي عنها بتوسع وتنهد، وهو يسب ويلعن فردة البلغة، في اليوم الثالث عندما أراد الدركي تحرير محضر للرداد، نادى عليه من الحبس، قام نحوه يجرجر قدميه، يداري حسرته وآلامه، سأله الدركي عن بطاقة هويته فأجاب: هي فردة بلغتي هذه! نظر إليه الدركي مندهشا، فاستطرد مهدئًا من روع الدركي،أليست هي الدليلَ الذي هداكم إلي ؟!

تبسم الدركي ضاحكا، والرداد يضرب كفا بكف ويقول:

النعال ملعونة، لن ألبس نعلا بعد اليوم، كان جوابه الساخر ذاك سببا في صداقةٍ نُسِجَت خيوطها بينه وبين الدركي الذي ساعده على الخروج من ذلك المأزق. كيف يدخل الرداد السجن لسبب بسيط: فراره من رجال الدرك، وهو لم يرتكب ذنبا يَسْتَأْهِلُ العقوبة، لو بقي في مكانه، لما حامت حوله الشكوك، ولأُخْلِي سبيله بمجرد سؤال أو سؤالين.كيف يدخل السجن بهذه السذاجة، وهو الذي طالما سخر ممن يُحبَس لسرقة دجاجة يقول:

أُفَضِّل أن يحكم القاضي على سارق دجاجة بعقوبة أقسى ممن يسرق صندوق بنك !

قبل أن يُسجن أحمد بسبب رغدَانَة، عاش أياما عصيبة قبيل المحاكمة، إذ كان والده صعب المراس، قوي الشكيمة، يكيل له وابلا من الشتائم والمؤاخذات، يولول ويولول حتى يصل به الهم إلى اللطم. أذكر وأنا جالس خلفه، أعد كراسي المحكمة قبيل دخول القضاة أنه كان

Scanné avec CamScanner

واجما بئيسا كأن على رأسه الطير. أُدخل أحمد إلى قفص الإتهام، تحدث القاضي والدفاع وأحمد، ونودي على رغدانة للمثول أمام المحكمة. فلما رآها الوالد تمشي في صمت ينطق حسْنًا وبهاءً تَهَلَّلَ وجهه وغادر القاعة وهو يقول:

" لا بأس أن يُسجَن ابني من أجل هذا الجمال الفتان ! " المصيبة كل المصيبة أن تدخل السجن بسبب فردة بلغة الرداد أو بسبب دجاجة مسروقة أو " شِي خْطيَّة "

ويضيف الرداد: السجن أشد قساوة على المظلومين الذين سُجِنوا لخطإٍ في التقدير، ثم على المسجونين لسبب تافه لا يستدعي تلك المعاناة، ثم على المذنبين خطأ فعلى المذنبين عمدا. كيف استطاع أن يفهم ذلك في ثلاثة أيام قضاها في زنزانة المخفر، وهو الذي بات يصارع حرارة المكان، ودخان السجائر السوداء ورائحة البول والبراز المنبعثة من حفرة المرحاض المكشوف وسط الزنزانة، وهو الذي يشكو رهاب الاحتجاز؛ إذ بات يقفز بين الحين والحين دون شعور لالتقاط أنفاسه واستعادة توازنه، باحثا عن خيط نور قد يلوح من ثقب نافذة الزنزانة الوحيد، يتصبب منه العرق غزيرا حتى خال أَنْ سَيَفْرُغُ جسدُه من الماء، ويلقى حتفه بعد يوم أو يومين، ولكن الله سَلَّم!

كنت أنظر إليه، هادئا طيب الخاطر، وهو يُسند ظهره إلى حائط "الجامع" يبحث في سحنات وجوهنا عن موضوع يطرحه للبيع ! ما أجمل الحرية ! ما الفرق بين زنزانة المخفر وزنزانة القارب ؟

Scanné avec CamScanner

هزني سعيد كمن يريد إفاقتي من نوم لم أذق طعمه وقال :

ألا ترى أننا في سجن يفوق حصاره كل سجون الدنيا ! !

لم أستغرب تفكيرَهُ الماثل، فكل العقول على هذا القارب تشرب من نفس الحوض المالح إلا عقل القزم.

قلت بابتسامة مفتعلة: "أَلْكَاطْرَاز!"

رد سعيد: "الكاطراز" تمكنوا من اقتحام حواجزه، أما هذا السجن فلا مفر منه، لا مناص من الانتظار .

نظرت صوب القزم. سبحان مبدل الأحوال !

أين عجرفته وتطاوله؟ أين شطحاته على سطح صندوق القارب الخلفي؟

هو الآن هادئ و رزين، وديع كالحمل المربوط إلى جذع سعيد. سأله عن مستواه الدراسي، فأجاب:

لقد غادرت المدرسة باكرا، بعد أن دخلتُها دخول العز، يومها كان المدير يبعث في طلبي لمتابعة الدراسة فأطرد المراسيل، ولا أذهب إلا عندما أرغب في ذلك. ونظرا لِقصَر قامتي كنت كلما رغبت في الرجوع إلى التمدرس، أُخبرهم أن سني لا تتجاوز سبع سنوات، فيقبلون تسجيلي بالقسم الأول.

- أمن قلة التلاميذ في ذلك الوقت ؟
- لا، ولكنني كنت على قدر كبير من الذكاء!
- واضح ! ألذلك غادرت المدرسة خاوي الوفاض ؟

Scanné avec CamScanner

- قد يقتل صاحبَه فرطُ الذكاء.
- لماذا لم يقتلك ذكاؤك إذن ؟
- لأني أصغر منه (يضحكون)
- وهل فرطتَ في ذكائك؟
- كلا، أحتاجه للتعامل مع أمثالكم.
- فأي ذكاء هذا الذي يرهنك ياصغيري؟!

وَلَّتْ أيام العز في المدارس، يوم كانت "الْقْرَايَة" تعني الوظيفة! هل ترغبون في سماع حكاية عن أيام العز في المدرسة ؟ لا يزال أمامنا متسع من الوقت :

احكها، احكها، لعل فيها ما يغير مزاجك الثعباني. أيها الناس، اسمعوا حكاية العز من فم القزم، فقد تأتي الحكمة من أفواه المجانين:

" بعيد الاستقلال، كان عدد المدارس قليلا جدا، لا يوازي مطلقاً انتشارَ المساكن في البوادي، الأمر الذي يضطر الكثيرين للتنقل يوميا إلى المدرسة مسافةً قد تزيد عن خمس كيلومترات ذهابا وجيئة منهم من يقطعها راجلاً ومنهم من يركب دابة شَأْنَ ابن القاضي "سلمان" الذي أَعَدَّ له والده الميسور بغلةً مُسرجة يقودها عبد الوهاب الابن الصغير للخماس العامل في مزرعة القاضي، فإذا أَوْصَلَهُ، ربط البغلة خلف القسم، وجلس بجانبها يسترق السمع والنظر من النافذة إلى المعلم، يتابع الدروس بكل اهتمام، وبقي على هذه الحال،لا يبرح مكانه حتى تنتهي حصة الدرس اليومي، فتعلم أشياء كثيرة حفظها بالسمع أحيانا وبالرؤية كلما سمح له

Scanné avec CamScanner

المعلم بذلك . فقد تَعَوَّدَ هذا الأخير على وجود، يعلم صعوبة المهمة الملقاة على عاتقة، فلا بأس أن يسمح له بالاستئناس بالدرس عبر النافذة فلربما يفيده ذلك في شيء، فيناله نصيب من الأجر . يوما ما وقد حضر المفتش إلى الفصل، استعصى على التلاميذ أن يتذكروا كلمة سبقت دراستُها في الحصة السابقة، فما زال المعلم يحاول استخراجها منهم حتى نطق بها ابن الخماس من وراء النافذة دون شعور .

استشاط المفتش غضبا، وثار في وجه المعلم يلومه على إخراج هذا التلميذ النجيب، ومخالفة السلوك التربوي بهذا النوع من العقاب. ولم يترك الفرصة للمعلم كي يشرح له الأمر، فجمع أوراقه وغادر إلى قاعة الإدارة.

تبعه المعلم يأخذ بيد عبد الوهاب، فأخذ يشرح للمفتش الأمر أمام المدير. تأسف المفتش للمعلم أولا، وتأسف لحال هذا الطفل النجيب المحروم من الدراسة فتكفل باستدعاء والده وتسجيله بقسم متقدم، ومالبث أن حصل على منحة تعليمية، مكنته من متابعة دراسته العليا، فأصبح أستاذا محاضرا بارزا . واستطرد القزم يقول : " لو تعلمون كم عبد الوهاب " لم يجد نافذة يسترق منها السمع، أو منفذا يلتمس منه نورا، أو يدا تمتد نحوه لإنقاذه من غيابات الظلام الحالك، والعيشة البدائية ! فبات يقضم أحلامه مع أظفاره، ويكبت طاقاته مع نزواته، حتى إذا حمى وطيس دمه، امتطى صهوة البحر إلى جواري، أحكي له

Scanné avec CamScanner

حكايات تدخل من ثقب أذنه اليمنى وتخرج من ثقب أذنه اليسرى. لا يفهم إلا حكمة اليوم :

"ربح أكثر ما يمكن بأقل مجهود ممكن في أسرع وقت ممكن " نحن في زمان تتم فيه الصفقات عبر شطحات الأنامل عبر الحاسوب.

ما زال الرداد يردد أن أعظم اختراع في عصرنا هو آلة " الترانزيستور"التي تنقل الأصوات بطريقة لاسلكية. كانت دهشته بهذا الاختراع كبيرة .. وما جاء بعدها من الآلات والاختراعات لا يضاهيها في شيء حسب زعمه ! ربما كان حكم الرداد نابعا من تعلقه الشديد " براديو 6 " الذي كان يعشقه بجنون، وربما لكونه لم يتعامل قط مع الحواسيب التي تناسلت نواديها في أزقة المدينة وشوارعها، وبات يلعنها كلما حكيت له عن الليالي البيضاء الحمراء التي يقضيها بعض الشباب في دهاليزها طلبا للفرجة العذرية ونحوها ...

حتى أبناء البلدة، باتوا يبتغون هذا النوع من الفرجة البصرية بعيدا عن الحاسوب، عبر شاشة التلفاز بجهازها الرقمي وصحنها المقعر الكبير بمقهى "العربي حوسه" . يجتمعون حولها حتى وقت متأخر من الليل، بعد أن يصرفوا الصغار من المقهى. في بداية الأمر يتأففون، ويستعيذون بالله من الشيطان الرجيم، ثم تبدأ التعاليق والقهقهات، ويسود بعدها صمت غريب، بعيون مشدوهة صوب الصور الإباحية، لا

Scanné avec CamScanner

يكسره إلا صوت الرداد يقول للمختار : ابلع ريقك أيها المعتوه ! عد إلى بيتك قبل أن يجف جسدك (يضحك الجميع).

– من يقاوم الرغبة في الرؤية المكشوفة ولو مرة واحدة ؟ من قال غير ذلك كذب، وإن شاء اختبار نفسه، فليكن وحده أمام الشاشة. حتى "سي جلول" ألفيناه يسترق النظر من شقوق نافذة المقهى، وقد كان يغادر الجلسة بعيد تحويل اتجاه الصحن صوب المحرمات كما يقول !

بعد وقت طويل، يقوم الرداد، وقد ازدادت دقات قلبه، واقشعر بدنه من فرط الإعياء والارتخاء، يقول : العنوا الشيطان يا جماعة عودوا إلى بيوتكم ! يخرج المختار متمتما : كيف يجرؤ هؤلاء القوم على فعل هذا أمام الناس ؟

يرد عليه الرداد : كما تجرأت على مشاهدتهم أيها المفتري . (يضحكون وينصرفون).

يحوقل فقيه الجامع الواقف أمامه، وهو يسمع قهقهاتهم ويتلو: " فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا".

يسمعها الرداد، فيحس بوكزة غريبة في داخله، يشعل سيجارته وقد جافاه النوم لحظات. في الصباح، يأمر زوجته بتحضير الفطور للفقيه، يحمله إليه بيديه . ينشغل الفقيه بصينية الفطور فلا يذكر للرداد شيئا مما حصل البارحة، فيخرج الرداد طيب الخاطر كأنما اشترى من الفقيه صكا من صكوك الغفران !

أومأ القزم إلى سعيد بالنظر إلى الساحل وهو يقول :

Scanné avec CamScanner

لقد ابتعدنا عن المدينة، ونحن الآن بمحاذاة المزارع الإسبانية، صوت القزم ذاك حرك قلوب الركاب، وحرك الذهن صوب آمال عريضة. لكنها حتما مغلقة بالظلام ! إلهنا ! نخلص من بحر إلى بحر آخر أوسع وأشقى، تنتهي مخاوف لتبدأ أخرى، وينقضي ليل ليبدأ نهار أشد حرا أهي الدنيا كما نعض عليها بالنواجذ؟

كم مضى عليك من الوقت يا "أنا"، في هذا المشوار العاصي، مشوار لم تُستأذني فيه يا أمي، يا كبدا تتحرق على فراق أبنائها. أنا ابنك ما شئت إزعاجك برحيلي، سأخبرك إن وصلت هناك يا أمي ! سأطلعك على غيب لم يخطر ببالك قط. لو تصبرين، غدا تقول نسوة الدوار : "وْلْدْ خْدِيجَة قْطَعْ الوَادْ ونْشْفُو رْجْلِيهْ" غدًا أزف لك البشرى بنفسي، وإن أخبرك عني غيري، فترحَّمي على ميت بلا رمس، واحتفظي بالتمر وماء الزهر، ولا تذرفي دمعة واحدة، فقد أكون شبعت ماء مالحا...

أنا قرب الساحل، لا أفهم ما كان يقصده الرداد بقوله :" السَّاحْل في راسُو وَاحْلْ " أعلم الآن أني على خطإ كبير، وأُدْرِكُ أَنْ لَيْسَ صواباً، أن أحرق قلبك كل يوم يا أمي، وأنت تنظرين إلي نظرة إشفاق ورثاء ! وكل صباح تبحثين في أطراف مناديلك عن دراهم أشربها دخانا ساخنا يخفف عني بعض الأحاسيس المدمرة، ويذهب عني أسى خيبات الأمل المتكررة، وعناء البحث عن شغل بين دروب المعامل وصفحات الجرائد المتناثرة...

لست ممن يظنون أن ثدي الأم لا يجف أبدا، وأن معين الأب لا ينضب مطلقا، لست ممن يستسيغ النوم ليلا ونهارا، ويقبل قافية الرداد: " مُّو مْخَمْرَة وبُوهْ غَايْبْ للْبُونْ " كيف أكون عالة على غيري،

Scanné avec CamScanner

وأنا الحاصل على شهادة جامعية ؟ ! وأنا القادر على البذل والعطاء بسخاء" هذا فقيه الجامع يقوم بأدوار متعددة، فيوحي للرداد بأنه لم يترك لنا ما نقوم به . حين يضيق أفق التفكير، لا ينظر الرداد إلى الآخرين خارج إطار القبيلة، فيسلط جميع الأضواء على الفقيه يقول :

مْنُّو فْرَاشْ مْنُّو كْرَّاصْ مْنُّو غْطَا للرَّاسْ" لم يترك للمجازين عملا آه، لو يترك الرداد الفقيه المغلوبَ على أمره بسلام. لو يعلم كم من الناس راكموا المهام والألقاب يتباهون بها، وكم جمعوا بين الرواتب والمراتب !

جثم التازي على ركبتيه، لا يستطيع الوقوف أكثر من ذلك، وكبر بصوت عال. فشحذه القزم بنظرة شزراء وقال: "مْسَبّقْ الفَرحْ بْلِيلَة " امتعاض القزم وكلامه ممزوجان بنظرته الحلزونية إلى سعيد الذي أمره بالصمت فصمت. لكن صوت النساء طفا على سطح القارب من جديد . كان آخرَ عهدٍ لنا بسماعهن البكاءُ والنحيبُ، أصواتهن هذه المرة خصام وشنآن بين اثنتين، كانتا تتبادلان الهمس طيلة مسافة الرحلة، ولما أحستا ببارقة أمل في النجاة، غلب طبعهما ما تطبعتا عليه خلال سفر الأهوال صوب المجهول.

أصوات رجالية تتعالى بالأمر والنهي :

- اخرستا أيتها ال.....!
- أصمتا يا بنات.....!
- ما لكن وهذه المغامرة ؟ أنتن اللواتي تأكلنها " بَارْدَة " !

Scanné avec CamScanner

حولتْ إحداهن رشاش فمها صوب أصحاب هذه التعليقات الحاقدة.

هذا ما استطعتم قوله ! تحاولون إسكاتنا، خنقنا، لا يهمكم إن ضحكنا أو بكينا، غضبنا أو رضينا، لا يعجبكم فينا إلا العجب ! لو استطاع أخرُكم أن يوفر لنا مأوى آمنا لما سمعتم أصواتنا، ولا نظرنا الى وجوهكم البغيضة...

رد أحدهم :

- وهل أنتن حاذقات إلا في هذا ؟! سوقكن فارغ أبد الدهر !

وبماذا امتلأ سوقكم أيها الحانقون؟ بالبوار الذي طال سلعتنا، بأسلحة صدئت وتآكلت عبر العصور، تشهرونها فوق مشاعرنا ضربا وطلاقا. بألسنة سليطة، تقمعون بها آهاتنا وأناتنا.

آه وألف آه. لَكَمِ اجتررت هذا الكلام في مخيلتي حتى أَلْفَيْتَنِي أَحُطُّ رِحَالَ الفكر في حضرة الرداد، أتأمل كيف اقتفى أثر ذلك التحول في الأدوار بين الرجل والمرأة يقول :

تنازل الرجل في أكثر البيوت للمرأة عن الصينية، وهي طقس من طقوس الجلسات العائلية والجماعية، ورضي بكأس شاي تُسَلِّمُهَا إليه. البراد المملوء رجل ذو قوامة، يشقى ويتحمل حرارة الماء، ويكتوي بنار الجمر ليسقي الكؤوس ومنها النفوس. عندما تنازل الرجل عن الأخذ بزمام البراد، فَقَدَ هيبته، يحدث هذا في البادية، أما في المدينة فقد أصبح الشاي يُطبخ في منأى عن الأنظار، فافتقد الناس هيبة الرجل ولذة الشاي، ويختم الرداد نظريته الحالمة بتعليق سخيف : " لقد رأيتُ في

Scanné avec CamScanner

بعض النساء رجالا ينقصهن الشارب واللحية، ورأيت في بعض الرجال نساء تنقصهن المساحيق ".

ثم يضيف : إن أعظم مساواة بين الجنسين في نظري، هي أن يكمل الواحد منهما الأخر رغم تبادل بعض الأدوار إلا ما خالف الفطرة و الغريزة. فإنْ حصل ذلك التكامل على مستوى الأسرة. فأبشر بتكامل أوسع وأرقى على مستوى الأدوار الاجتماعية وغيرها... حديث الرداد بهذه الطريقة المتأنية والناقصة طبعا. كان ينزل بردا وسلاما على من كان يثير غضبهم بمزاحِه، ولا يجرؤون على إظهار غضبهم. كان يبادر أحدهم وهو يقوم من مجلس حائط الجامع : " بَاقِي مَا خَمَّرْتِي ؟ "

ولأخر : " مْسْكِينْ، بَاقِي الصَّابُون يْتْسْنَّى فِيكْ ! "

يضحكون وينصرفون، ويرد عليه أحدهم :

- هذا الرداد قَدَر ! بقدْر ما يؤنسنا ويفيدنا، بقدر ما هو مزعج، إنه يتقلب كالحِرْباء !

ويرد عليه أخر :

- احمدوا الله بهذا الرداد القَدَر، وادعوا له بطول العمر، فهو ذاكرتنا الحية، تمشي على قدمين !

الحمد لله أن شدني صوت الرداد الغائب أكثر من لغط بنات القارب الحاضرات، وأولاد القارب الحاضرين.

غريب أمر هذه المخلوقات المنتسبة للإدراك ! لا يصبرون حتى وهم يدركون قصر الرحلة، وقد يفترقون بعدها إلى الأبد. يتعاركون،

Scanné avec CamScanner

يغضبون، يتلاعنون، يتقاتلون حتى وهم يستقلون حافلة لبضع دقائق.
لماذا هذا الفكر الآنيُّ الأناني ؟

مجرد سؤال في بحر.

آه، كم سؤال ذهب أدراج الرياح لا نعلم لها اتجاها ! وكم سؤال استعصى على اللسان فبات غصة في الحلق ! وكم سؤال أجبنا عنه بنسيانه ! نجوع فنبتلع ما تُنبت الأرض وما يحوي البحر، ويعز علينا أن تجوع الأرض والبحر فيبتلعا أجسادنا.

مجرد نسيان أو عصيان أو هذيان !

نعم، لقد راكم جسدي جبلا من الأثقال، و راكَمَ فِكري كَمًّا من الأسئلة، ومع ذلك أجبت التازي وهو يسألني :

- هل يوجد معنا على ظهر القارب هذا الرداد الذي يسكنك ؟

- لو ركب كل الناس قوارب كهذا، أنا على يقين أن الرداد لن يركبه.

أتعلم أنه لا يبرح القبيلة منذ زمن ؟ فقد رأيته منذ عشرين عاما. لم تتغير ملامحه ولا طريقته في الكلام و الجلوس و اللباس و... كل شيء. أصبح الرداد جزءا من كيان القبيلة، لا يمكن لأحد أن يتخيل حائط "الجامع" دونه. يستحق تمثالا بعد موته قرب حائط الجامع. هذا الرداد لن يموت كما يموت الأخرون ؛ لو نفذوا وصيته بدفنه قرب حائط الجامع

Scanné avec CamScanner

الذي أحبه، لو فعلوا ولن يفعلوا، صار قبلة الزوار بعد أن يذيع صيته، ويبرز تخصصه في علاج بعد الأمراض المستعصية.

كان أشد ما يكره قافلة النساء، وهن يركبن الدواب متجهات صوب "سيدي بوشعيب البوهالي" – نشم ذلك من تعليقاته الساخرة – : لو كان سيدي بوشعيب البوهالي حيا لطردكن كما طردت زوجة ابن الجيلالي ليلة زفافها !

يتتبع الحاضرون قافلة النساء وهي تعبر من أمام الجامع ؛ المتزوجات يبادرن بإسدال غطاء رؤوسهن على وجوههن، فيما يكسو وجوه العذراوات احمرار الحشمة والخجل، وعيونهن في التراب، وفي ذلك إستعراض محلي أمام شبان البلدة ؛ فيتزايد الهمس الثنائي والثلاثي، فيما تتـوارى القافلة خلف كروم التين !

ويستطرد الرداد في تحذيراته للشبان الغارقين في الهمس المتبادل ؛

لا يغركم احمرار الوجنتين، لم تكن زوجة ابن الجيلالي تجرؤ على النظر في وجه أحد، ومع ذلك سَوَّدَتْ لَيْلَتَه. كان العرس رائعا، تبارى الخيالة في الصباح الباكر، في فرحة بطولية تغمرها الرقصات والزغاريد، واستمر الاحتفال في صفوف النساء بين غناء و رقص و"غْرَامَة" وأكل وشرب حتى إذا كان الليل، استحوذت الخيمة الكبرى على العيون والقلوب، وحركت العيطة كل الأمزجة، فلا تسمع إلا قرع الكؤوس المتناطحة وسط ركام من الضوضاء لا يفهمها أحد ؛ وابن الجيلالي، عريس الليلة وسلطانها، وقد أمضى النهار على ظهر بغلة صحبة وزيره، يدعو الناس إلى الحفل المترقب.

Scanné avec CamScanner

تحولت الدار فجأة إلى ما يشبه المأتم، عمَّها صمت رهيب، ابن الجيلالي في بيت معزول في ركن الدار، وقد أقفَلَ دونه البابَ والدُه، وأمره بالتزام الهدوء، بل هدده إن نطق بكلمة واحدة، أن تكون نهايتُه على يديه، وأمر بإطعام الناس كالعادة، أم الجيلالي تندب حظ ابنها في صمت معزول : العروس ليست بكرًا.

تفرق الناس، ولم تطلع شمس اليوم الموالي حتى طلعت العروس من بيت ابن الجيلالي وقد طلقها ليلة عرسها. محزن ذلك حقا !

لماذا يعيد الرداد حكايتها كلما مرت قافلة النساء ؟ ربما حز في نفسه أن يصرف بن الجيلالي كل تلك المبالغ في إقامة العرس دون طائل !

فقد كان يردفها بحكاية "وْلْدْ الرَّا" الذي تزوج امرأة لم يُقِمْ لها عرسا ولا غير ذلك، مَهَرَها بمبلغ 300 درهم وهو يقول للجماعة : لقد دفعت هذا المبلغ في زواج إن نجح خيرا فعلتُ، وإن فشل كنت كمن اشترى حمارة آنَ الجفاف فماتت. يا له من لئيم !

يحار الرداد في أمر بنات اليوم وقد غلا ثمن كل شيء، رادفت الأعراس الإفلاس. شبان اليوم يبحثون عن الباءة وبنات اليوم ينتظرن العريس بشوق لا ينتهي أبدا. سنة الله في خلقه !

Scanné avec CamScanner

زواج الظلمة

أيها الناس، اسمعوا من فضلكم : أنا أعاهد الله وأشهدكم أني قبلت الزواج من فاطمة، فقد رضيتْ بي زوجا. وسنحتفل بعد وصولنا هناك، لن نفترق أبدا !

ماذا نسمع ؟ إنه التازي، ما هذا الهراء ؟ ربما أصابه دوار البحر !

ولكنه يبدو متحدثا بارعا، في كامل قواه العقلية، يده في يدها وهي تبتسم كما لو كانت أمام كاميرا التلفزة.

– قال القزم متهكما : زْوَاجْ الظَّلْمَة !

– وقال سعيد : يا أخي ، "زْواجْ لِيلة تَدْبيره عَامْ" !

– رد التازي : ذلك زواج البر، أما نحن فقد قررنا الزواج في البحر. وإن ليلة على ظهر هذا القارب كثلاثمائة وستين يوما مما تعدون.

– أضاف القزم : ربما يخشى على نفسه فتنة الشقراوات هناك !؟

Scanné avec CamScanner

– رد التازي : بل لعنة "الأوراق" التي تكبل البعض بعجائز الغرب. كما أني لا أطيق زغاريد النساء خلف النعوش، فلا تنعتوني بالعازب إذا مت قبلكم.

هذا الموت الضرير، يزحف نحونا بمنساته يضرب في كل ركن من أركان هذا الكون الفسيح، يطاردنا فنموت مرات لا تعد ولا تحصى، عدد قطرات هذا البحر اللُّجِّيِّ نموت.

وهذه الحياة الجاحظة العينين، هذا الخيط الرفيع يشدنا نحو أسارير بلا حدود : الرغبة في امتلاك اللذة بأي ثمن!

وهذا الدين يجعل الموت بعينين، ويغض أطراف الشهوة حتى لا ترى أبعد من حدود دقيقة.

وهذا أنا على ظهر القارب أرتجف، تنهش الوساوس فكري كما تنهش الجرذان أصابع الذرة، أعد ذنوبي، تتسارع أمام مخيلتي كما تتسارع الصور على الشاشة الخادعة. أين فرت حسناتي ؟ أم هي مطاردة الموت في غيابات سجن الخيال.

مساحة الحلم لا حدود لها، حاول تضييقها وستجد أمامك ملاقيط تقضم الحديد قضما، ومناشير تقطع أسلاك الأسيجة بلا هوادة. وكذلك مساحة الفكر ؛ لا تلبث كل الحدود والقوانين السماوية الحقة والوضعية الموضوعية على اختلافها، تبعث على تمطيط دائرة الحلم والتفكير في الاتجاه السليم ؛ يتسابق الناس في ولوج مساحاتها ويتفاوتون في امتلاك

Scanné avec CamScanner

القدرة على ذلك. وأشد الحالمين إصرارا من يسرج أحلامه فيركبها بغير عنان.

وحدك أيها الموت تحاصرني في دائرة الرعب، ومع ذلك لا تستطيع أن تحرمني من الحلم والتفكير قبل أن تجهز علي.

رحمة الله عليك يا "مي مسعودة" يا أم الرداد العزيز. صغيرا كنت أحدث نفسي كلما نظرت في عينيك، بأن الموت لن يصل إليك، فأنت مبروكة ! كل نسوة الدوار يرددن "مسعودة" الزنجية بلون أسود وقلب أبيض". تفزع كلما رأتني أتسلق كروم التين وكرمة الإجاص الوحيدة في البلدة آنذاك، فتأمرني بالإكتفاء بما جنيتُ والنزول بحذر شديد. تربث كتفاي في حنو ناذر، وابتسامتها تملأ الأفاق، كأني ببياض أسنانها البرَّاق، وسط سواد بشرتها ثلجا تهاوى بين نتوء صخرية سوداء، أقرأ في حَوَر عينيها ، وارتعاشة شفتيها البارزتين، ذلك الهدوء الذي يُخْفِي قَلقها علينا من المكاره. لن تصدق مي مسعودة في قبرها أبدا، أن أبناءها يركبون أشجارا بلا جذوع أو جذور، أشجارا تطفو على سطح الماء، وعلى جناح المكر والخديعة. ابنها الأكبر لا يشبه الرداد في شيء، يعدو خلف مزاجه، ينتشي بالخمرة يشربها بمناسبة وبغير مناسبة، تَعدَّت شهرته آفاق البلدة حتى لا تكون جلسة "الشيخات" دون أن يكون بجانب "الكْوَمَانْجِي" كان يخيط فساتين النساء، ويخيط معها أيام عمره المتنافرة، وكلما عاد الصيف بحرارته اللافحة وارتمى أولو الحظُوة في أحضان الشواطئ ابتغاء الماء والأضواء، في أضخم عرض للعراء، رمى

Scanné avec CamScanner

يجسده النحيل في زحمة الحانوت، يبتلع مرارة الفرصة الضائعة، ويلعن حظه البئيس كلما انغرز في أصبعه طرف الخياط، فيرمي بالإبرة والحلق جانبا، ثم يشعل سيجارة فافوريت، ويومئ للصبي أن يناوله كتاب " الإنجليزية بدون معلم" يتصفحه في سخرية لا يستسيغها من مساعدَيْه مطلقا، فيصرخ في وجه أحدهما : "لا يلدغ المؤمن من الجحر مرتين" يرد عليه مساعده الأخر في وجل وهدوء: وما يدريك أن التي ستطلب يدك هذه المرة " كَاوْرِية تتحدث الإنجليزية" ؟!

– إنها لغة عالمية واسعة الانتشار. كيف يمكن أن تضيع مني فرصة كهذه، ألتقي وزميلي بسائحتين إنجليزيتين، تعجبان بنا، وترغبان في الزواج منا دفعة واحدة، فيتزوج زميلي بواحدة، ولا أتمكن من ذلك لأني لم أستطع التواصل معها ولو بكلمة، ليتها صبرت علي شهرا أو شهرين لأتعلم ! والمصيبة أن دمي يفور كلما عاد صديقي وزوجته، وقد تغيرت ملامحه وزاد وزنه، وأنا لازلت في ركن الحانوت كالكلب الأجرب. سأرحل، سأرحل من هنا بأي ثمن. ولكن متى، متى وقد أضعت فرصة العمر ؟

إيه ! ستَضَع كل ذات حمل حملها، وتضيع كل ذات حلم حلمها، وترى الناس حيارى، مسلمين ما هم بيهود ولا نصارى، ولكن ألسنة اللهيب تأتي على الأخضر واليابس في سوق النخاسة المعاصر!

هذا الإنسان لا يتعلم أبدا...

هذا الإنسان لا يشبع من الدم والحروب...

Scanné avec CamScanner

هذا الإنسان لا يعي شيئا من الذي مضى، عدو للتاريخ، يبليه ويطمره، صديق للجغرافية يثريها ويجددها.

سنة 1990 أقدم البعثيون على اقتحام الكويت، امتعض كويتي في محاولة للتخفيف من وقع الكارثة وهو يوجه الكلام إلى بعثي : "أنتم لا تاريخ لكم أيها البعثيون، لقد أدخلناكم التاريخ بفعلتكم هذه ! "

فرد البعثي : ونحن أخرجناكم من الجغرافية.

رد الكويتي : بارك الله لنا في أمريكا. ستعيدنا إلى الخريطة من جديد و تُدخِلكم التاريخ من خلال نكبة أخرى.

تتوالى النكبات توالي صفعات الموج المتلاطم، يضرب جنبات القارب فيرشنا رشا، تبللت ملابسنا، وتخللت الملوحة الأجفان والأهذاب، نجفف شفاهنا بألسنة تلعق الملوحة بامتعاض... و هذا القارب ؟ هذه الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض مالها من قرار، شجرة الزقوم لاتسمن ولا تغني من جوع، مر مذاقها كطعم العلقم والصبار، وشرر يتطاير من لهيب سقر، يكوي القلوب تغلي بدواخلنا غلي الحميم، ويشوي وجوها لا تعي وجهتها، في ليل وبحر لانهاية لهما.

Scanné avec CamScanner

Scanné avec CamScanner

نهاية القوس

استدار القزم بجسده المُكَوَّر كالمعتوه، يتفحص وجوهنا، وشعاع القمر يرمي بسهامه الدقيقة على جسد الماء، يعكسها كمرآة صافية، ثم فتح فمه كمن يريد أن يقول شيئا. فانحبس الكلام بداخله، امتص شفتيه، وحاول من جديد، كان يبتسم كلما نظر في وجه سعيد، تلك الابتسامة البليدة، ونظرةُ سعيد الحازمة تغطي أسنانه، فترتسم تجاعيد الخوف على جبهته المسطحة،

- تكلمْ أيها الوغد اللئيم ! لقد سئمت النظر في وجهك البغيض، غمغم سعيد
- لقد وصلنا الساحل الإسباني.
- ماذا ؟ كيف ؟ أين هو ؟!
- أنظروا هناك، ألا ترون ؟!
- تحركوا جميعا ملتفتين دفعة واحدة، حتى كاد القارب أن ينقلب فصاح القزم : اهدأوا، اهدأوا،

Scanné avec CamScanner

- إلزموا أماكنكم ! نظرنا باتجاه الساحل، فإذا بجلاميد صخر متراكمة، لامناص من تسلقها للوصول إلى اليابسة. أيعقل هذا ؟ أيستطيع هؤلاء المنهكون خوفا وتعبا مغالبة فشل مفاصلهم، ووني أعصابهم للصعود عبر هذه السلالم العملاقة ؟!

- سأل التازي القزم ؛ ألا يمكنك الابتعاد عن هذا المكان الصخري قليلا ؟ إنه جرف عال لا طاقة لنا به !

- لا أستطيع المجازفة بكم، خير لكم أن تتحملوا عناء الصعود من أن تواجهوا مشاكل مع حرس الحدود.

- وأنت ماذا ستفعل أيها القزم ؟

- سأعود إلى حال سبيلي، ألم تَعِدْنِي بذلك يا سعيد ؟ لقد أوصلتكم بسلام، هيا اهبطوا، وأنصحكم بأن تتفرقوا إلى مجموعات صغيرة حتى لا ينكشف أمركم.

رمى القزم بخَطَّافٍ حديدي مربوط بطرف الجبل، عَلِقَ الخطاف المعقوف بصخرة حادة، وأوقف دوران المحرك ثم أخذ يجذبنا بالحبل نحو الصخرة حتى رسا القارب. تقدم أحمد وكان أول من وضع قدميه على الصخرة، فأخذ يساعد البنات على النزول الواحدة تلوى الأخرى وكلما نزلت إحداهن قصدتْ صخرة من الصخور ، وجلست عليها تستعيد أنفاسها، وتنتظر نزول البقية الباقية، وانطلاقة مرحلة تسلق الجرف والابتعاد عن البحر.

Scanné avec CamScanner

نزل سعيد، فلم يبق بالقارب إلا القزم الذي أسرع بأخذ سكين وجز الحبل الذي كان يربطه بسعيد، ثم لوح بالمخطاف يجذبه إليه، أدار المحرك من جديد، وانطلق وهو يقول :

– هذا جزاؤكم أيها الأوغاد، هذا جزاؤكم ! لقد كانت رحلة متعبة ولكنها ممتعة حقا ! (وضحك ضحكة تردد صداها عبر الصخور).

لم يفهم أحد شيئا من كلامه ذاك، فالكل منهمك في لم أغراضه واسترجاع أنفاسه، يفكرون في أمر الصخور المتراكمة، في علوها وتدرجها. شيء واحد كان يخفف عنهم التعب والقلق، هو إحساسهم بنجاح المغامرة، وإيمانهم باجتياز حاجز البحر الرهيب ! التفت ألقي نظرة على الآخرين، فإذا لوحة فنية جادت بها ريشة القزم : أجساد منهكة ثاوية على صخور صماء، لم أجد لها عنوانا أفضل من : "استراحة المحاربين " لكن هؤلاء المحاربين واثقون من استئناف الحرب بعد قليل، لذلك كانوا يتحدثون إلى بعضهم دون انقطاع، حتى لا يأخذهم النوم في غفلة كسل،تعب أو غرور ! كلهم تابعوا القزم يعود من حيث أتى، وحيدا كشيطان البحر يملك قاربا .

قال سعيد : لو احتفظنا بذلك القزم إلى جانبنا لساعدنا على تخطي العقبات المقبلة، إنه يتحدث اللغة الإسبانية قليلا، وربما يحسن إختراق المزارع والتضاريس الغربية.

Scanné avec CamScanner

- لم يكن بالإمكان فعل ذلك، فقد فر اللعين، فليذهب إلى الجحيم !

- كنت أنوي جذبه نحوي بعد مغادرة القارب، كنت أنوي تعذيبه كما عذبنا، كنت أنوي تأديبه حتى لا يكرر ذلك مع غيرنا، كنت... كنت... ولكن ولات حين مناص ! لننسى القزم والذي مضى، ونتوكل على الله، هيا أسرعوا، لنصعد جميعا، الواحد خلف الأخر، اجعلوا البنات في المقدمة، وليتقدم أحمد أمامهن لاختيار المسار.

ما إن تقدم أحمد نحو الصخرة الثانية حتى توقف مذعورا، فقد رأى جثة بين الصخور،

اندفعنا نحوها، حاول التازي تحريكها، كانت أثقل ما تكون جثة غريق. استخرج بعض الأوراق من جيب الجثة، أشعل مصباح الجيب فجحظت عيناه ونطق : إنه مكناسي، إنه مكـ.. ! كيف وصل إلى هنا؟ ربما غرق كما غرق الوجدي، ربما... ربما... أسئلة كثيرة ولا من يجيب! هيا واصلوا الصعود ! الكل يحاول مداراة ضعفه، وآثار الدوار الماسكة بأم رأسه، الكل يحاول وصول القمة قبل طلوع الفجر. فوصول المبتغى في الظلام أحب إلى قلوب الخفافيش ! زلّت قدم سعاد، فتهاوت على الصخرة المحاذية، سمع الجميع صراخها، وقد التوت قدمُها، وانتفخت، وهي تستغيث باكية لم تعد قادرة على الحركة. الصعود شاق على السَّلْمى، فكيف بها وهي برِجْلٍ واحدة. استمر الآخرون في تسلق

Scanné avec CamScanner

الصخور، يتهامسون فيها بينهم حتى كأني أسمع نفسي، نفسي ! خيل إلي أن البحر يردد نفس الكلمات.

زمجر أحمد كما لم يفعل من قبل : إلى أين يا عباد الله ؟ كيف تتركونها في هذه الحال ؟

يواصلون التسلق كمن لا يسمع شيئا !

– واعباد الله، أمامكم الكثير من العقبات، عليكم بالتضامن في الضراء والضراء... لا تَدَعُوا هذه المسكينة تقضي كالحشرة المداسة ! حرام عليكم

– يواصلون التسلق كمن لا يفهم شيئا !

– سيأتي عليكم يوم تسقمون فيه، ولا تجدون من يمدكم بشربة ماء، تذكروا جيدا.

إلهي كيف تجرد هؤلاء من كل إحساس بالإنسانية، بالشهامة، هل تركوا أحاسيسهم في البحر ؟ أم ركبوا البحربغير أحاسيس ؟ الأكيد أن أكثرهم ركبوا البحر بغير لسان.

تسمر أحمد بجانب سعاد، لم يعد يفهم شيئا مما يدور، تعذر عليه أن يتقبل ما حدث، وأن ما يجمع هؤلاء لا يعدو أن يكون قاربا ليس إلا، وقد أصبح شيئا من الماضي.

Scanné avec CamScanner

فردِّدْ أيها الرداد أغنيتك المهووسُ بها قلبُك، تدندن بها كلَّما عزَّ عليك انغماسهم في أنانيتهم، ردِّدْهَا بلحنك الشجي المعهود... "أَنَا بَعْدَا كَنْخَمْمْ فِي رْوَيْسِي) !

تدندن بها في تثاقلٍ يميل إلى الهمس، بنبرة حزينة حزن القبيلة بأسرها. أنت تدرك حر الآه تخرجها من تجاويف صدرك المكلوم، أنت الذي تأففت وغضبت حتى انحبس الهواء في رئتيك، وبصقت الدم حسرة وكمدا وأمسكت بخيط الأمل في الحياة، تعالج سُلاًّ ينخرُ ذاتك أشهرًا معدودات وحَسْبُك أنك لا تركب القوارب.

ها هم يدبون على الصخر دبيب الطَّلْعسُون، يَلُفُّهُمْ السَّواد، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، جيش يزحف بلا عدة أو عتاد، نحو نجاة أو نحو حتف مجهول المعالم والميعاد.

إني رأيت فيما يرى المتأمل أن النملة لا تترك أختها في مأزق أبدا، وإن ماتت سحبتها إلى الغار تسترها. فمن يعين سعاد الكسيحة، و إن ماتت، فمن يسترها خلف هذه الصخور ؟

طلبت المسكينة من أحمد أَنْ يدعها وينجوَ بنفسه، فهي لن تستطيع المقاومة مطلقا.

هدأ أحمد من روعها ؛ لا تخافي، سأتدبر الأمر، وأخذ يتسلق الصخور الواحدة تلو الأخرى، يلعن البشر والحجر، وقد زاده الغيظ شحنة وقوة لا مثيل لهما. كان يتجاوزهم واحد واحدا، وكلما كلمه أحدهم بصق في وجهه وصب عليه جام غضبه. استوقفه التازي ومده

Scanné avec CamScanner

بقميصه المنزوع بأريحية نادرة، وأشار عليه بضرورة لف رجل سعاد، حتى إذا استوى المفصل المتوعك، هدأت الآلام، وقاومت.

عاد أحمد أدراجه يلف رجلها بقميص التازي وهو يتمتم : أبدلك الله ثوبا خيرا منه وأجمل فقد أحييت بداخلي أملا كاد يضيع أيها التازي.

رد التازي العائد: ذلك من فضل ربي، فهل نملك شيئا حتى في أنفسنا؟ تأوه أحمد وهو يلعن قاموس التملّك، وما فعله في عباد الله.

كان الرداد يحدثنا بإسهاب عما فعله حب التملك في نفوس أهل القبيلة، فمن يملك أرضا مُحَفَّظَةٍ أفضل لديهم ممن يملكها بعقد عدلي، وهذا الأخير أفضل ممن يملكها بعقد محرر في المقاطعة الجماعية، وجميعهم أفضل ممن ورثها عن أبويه أو أقاربه، فالأخيرة مِلْكِيَّةٌ ملعونة لا تَثْبت إلا بالشهود حال النزاع، وما أدراك ما شهود المحاكم! ويتحدث الرداد عن " ولد عايشة " وكان يسميه "المْكَنِّي بمُّو" فيقول : أغلب الناس يأكلون من عرق جبينهم، أما ولد عايشة فيأكل من ريق لسانه الشاهد زورا ؛ فقد كان يؤدي اليمين في المحاكم شاهدا على ما لم يشاهده بمقابل، ينتسب لجماعة من أصحاب "المَوْقْفْ" تشهد زورا، تبيع دمها للمريض المحتاج، تُناصر مرشحا ثريا خلال حملات الإنتخاب... وتُردف نهارها بليل ملؤه الخمر والميسر، فتغدُو خماص الجيب والبطن لا تلوي على شيء، وجوها مخروطة يلفها البؤس والضياع ويدور بها العبث في دوامة الملل الرتيب.

Scanné avec CamScanner

كثيرة هي الظواهر التي تجذب حفيظة الرداد، يسوقها في قوالب ساخرة، تنم عن موهبة مكبوتة، ونظرة إبداع تنتظر الإقلاع، تخنقها قبضة الأمية اللعينة، كل ناس القبيلة يقولون : لو تعلم الرداد لكان أنبغ أهل زمانه في تخصصه، ولو كانت موهبته صماء بكماء، فلربما نال شهرة حظيت بها الفنانة "الشعيبية" ولكنه كثير الكلام فيما يعلم وما لا يعلم !

آه ! لو علمت سعاد ما كان ينتظرها من آلام ومتاعب وأهوال، ما ركبت القارب قط ! لو !

هي الآن بين نار الألم الفظيع، ولهيب الوساوس والمخاوف، كيف تصعد هذا الجرف العالي، وكيف تقطع الأميال صوب المخبأ المأمول، وكيف تبحث عن عمل تسد به رمق البداية العسيرة ؟ وإلى متى يتحمل أحمد والتازي عبء هذه المشؤومة البئيسة!؟

أخذها أحمد و التازي بينهما مثل قفة مملوءة، وأخذا يلتمسان أيسر السبل للصعود، يراوغان الصخور يمينا وشمالا باحثين عن مسالك منحدرة في متناول الكسيحة، وهي تصارع الألم الحاد في مكابرة ناذرة. الآخرون تجاوزوا منتصف العلو، يصيح أحدهم وقد رأى صياد سمك مذعور، يحمل متاعه ويفر إلى حال سبيله:" أسرعوا، أسرعوا ! فقد يخبر عنا رجال الدرك هناك. اصعدوا، وتفرقوا، واحذروا ريحا حذر منها الرداد أهل القبيلة منذ زمن، ريحا تقتلع كل من لا يميد طوعا في اتجاهها، تُغَيِّرُ كل شيء على ظهر هذا العالم البشري". قالها وهو

Scanné avec CamScanner

يباشر "وَلْدْ الهْجَّالَة" القادم بعيد العصر، وبطنه المترهلة تسبقه :كم من الديناميت تحمل حول خصرك النحيل يا غزال !

يبتسم "ولد الهجالة" دون أَنْ يجيب. يعلم أَنْ لا قدرة له على مجاراة الرداد في جدال خاسر.

افسحوا "لِلْبَاطْرُونْ" يضيف الرداد : إفسحوا، فلربما أفادنا بواحدةٍ من مغامراته الفريدة في المدينة.

لو قالها غيره، لتحول "ولد الهجالة إلى ثور هائج في الحلبة يصب جام غضبه بيديه ورجليه على القائل، وبطنه المترهلة تهتز كأنها عجين الإسفنج يحركها بكلتا يديه. ولكنه الرداد !

يتحول الجمع إلى حلقة للفرجة، فيشتد التهكم من لدن الحاضرين وكلهم رغبة في هزيمة صاحب البطن المنتفخة : هو القوي في أدهانهم؛ يخوض في دهاليز المدينة ولا يقدرون، يعربد كل ليلة ويستعرض عربدته في بلادة وغرور، الكل يميل إلى هزيمة القوي، إلى مؤازرة الضعيف، شيءٌ ما يحرك فيهم ذلك الإحساس والرغبة في الإنتصار للمظلومين والمقهورين من هذا العالم.

– ظلمتِ نفسك يا سعاد !

قالها أحد المتسلقين صخور البؤس.

– ما كان عليكِ أن تحلُمي أكثر من (قياس فتحة ساقيك)، فما أسهل الأكل من بين... !

Scanné avec CamScanner

كنت ألهج تعباً، وهذا الكلب يلهث دون كلل. لم أشعر إلا والرداد يصهل بداخلي، أُكيلُ له أوزانا من السب والشتم، ولو كان بجانبي لأَتَيْتُ على عراكه حتى الموت.

أَيُّ أكل وأيةُ ساقين ؟

إني رأيتهن بعد زوال جمالهن كبقايا سلعة بائرة، تُعرض لآخر ساعة، يدارين المرارة خلف ابتسامات مُسَوَّسَة، تُخفيها قساوة برد ليل خريفي لا يرحم.

ورأيتهن سقيماتٍ يترددن على "سبيطار المخزن" بُغية حقنة مجانية قد تهدئ آلاما لقيطة.

ورأيتهن منزويات في ركنٍ مكترى، يتجرعن مرارة العزلة والشرود بعد فوات الأوان.

ورأيتهن، ويا ليتني ما رأيت طوابيرهن قُدَّام المساجد سائلات متسولات، والحمق يقطر من عيونهن يأسا وندما.

أي ظلم أشد وأقسى من هذا التيه والضلال ؟ ظلم النفس وظلم الناس!... كيف ظلمت سعاد نفسها أيها الناطق عن هواك؟ وهي التي تفر خشية المصير الأسود، تئن تحت وطأة البرد والجوع والألم ؟...

وتراهم يدبون فوق الصخور بأفواه مفتوحة تقطر لعابا وتعبا، بأجساد منهكة تحكي قصة النعناع الكيماوي، وخضروات "الوَادْ الخَايْبْ" التي جعل منها الرداد حكايةَ قومٍ يأكلون ويشربون، بالليل والنهار، أصنافا لا تعد ولا تحصى، وقواهم خائرة، لا يتحركون كما

Scanné avec CamScanner

تحرك أصحاب الخبز والشاي من أجدادهم البدو، وكانت الفواكه والخضر لديهم تؤكل طبيعية غير ممزوجة بالأدوية الكمياوية التي أثمرت فواكه سمينة قد تسمن ولا تغني من أذى.

وهذا النعناع العريض الأوراق، يعجب الزراع ويؤذي النخاع، خليط جعل الناس يأكلون فيتآكلون، وتمتلئ العيادات وخزائن أهل الدواء. هو ذات الخليط يصب في حلق البحر عبر المصاريف المملوءة برائحة جعلت سعاد تنزع منديلا كان يستر شعرها، وتضعه على مقدمة أنفها.

التفت أحمد نحو التازي يسأله : ألاَ يُطهّر هؤلاء مصاريفهم كما كنت أسمع. رد التازي : الله أعلم !

ولو ترى، إذ وَجدوا أنفسَهم على الثرى، لا تكاد عقولهم تُصدق ما جرى، وقلوبهم تنبض بين الرجاء والخوف، وآثار إحساس بالفرحة ينزوي في ركنٍ ما من أركان دواتهم، يتبادلون بنات العيون في سداجة الونى، إلا نظراتٍ خجولة صوب أحمد و التازي وسعاد الكسيحة. آنها فقط، أدركوا حقارة أنانيتهم، ودناءة الجبن في عز المعركة. والثلاثة الذين تخلفوا يقعدون هناك بمعزل عن الجماعة، وبمنأى عن توجيه اللوم الذي لا طائل من ورائه. ثمة إحساس لدى الجميع أن صفحة الظلام لابد أن تُطوى، وصفعة القزم لابد أن تُنسى، فالطريق لازالت طويلة. الكل منشغل بلم أغراضه ولملمة جراحه، وإسترجاع أنفاس كاد يخطفُها دُوارُ البحر، وسُعَارُ القزم. الكل منهمك في متاهات السؤال العريض :

Scanné avec CamScanner

أطريقا وسط أدغال موحشة أم سبلا فجاجا يتردد بين أطوادها رجع الصدى أم سهولا تدب فيها الحياة، وينبت زرعها أمالا ويسرا؟

فقيه الجامع كان يقول : إذا تهت بين دروب المدينة فادع الله بدعاء " رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق... " كيف ربط الفقيه بين التيه وهذا الدعاء؟ هو وحده العارفُ بشرح الآيات بظاهر القول، فكثيرا ما كان يحذر النساء من آلام الظهر مستشهدا بالآية " وما يهلكنا إلا الدهر " فالظهر والدهر لديه سيان. ما كان الرداد يعي ظاهر القول ولا باطنه ولكنه يصدق كلام الفقيه ولا يعمل به، وأذكر أنه قال لي ذات مرة، "فقهاء الجوامع " أو " الطُّلْبَة " يحفظون بلا فهم ولا تطبيق سليم ولست أدري من لقنه الآية الكريمة " كمثل الحمار يحمل أسفارا " ويُنهي كلامه ذاك بوجوب توقير هؤلاء الفقهاء، فهم حملة القرآن الكريم. يذكر الرداد أن فقيهاً كان يحرر التمائم للنساء في الجامع، وآخر كان يعاشر إحداهن سفاحا في بيت الوضوء جنب الجامع وآخر كان... ما علينا ! المهم أن هذا الدعاء كلام الله، وأنه أدخلنا البحر وأخرجنا منه، وأدخلنا اليابسة وقد يجعل لنا منها مخرجا. دعوت به جهرا متعمدا، فتحركت شفاه من حولي تردده بضم الميم وفتحها .كررته مشددا على ضم الميم في كلمتي مدخل ومخرج، فرددوه بعدي جميعا وقلوبهم شتى. ذكَّرْتُهم أن القزم نصحنا أن نتفرق بعد وصولنا، فصاح سعيد في وجهي : ويحك، أتصدق ذلك المعتوه ؟ إنها مكيدة ! صاح أحمد : بل هو القول الفصل بيننا.

Scanné avec CamScanner

صمتوا جميعا. وانطلقت المجموعة الأولى صوب جهة ما، ولستُ أدري كيف سِرتُ خلفهم ؛ أهي الرغبة في الوصول أم الرغبة في التخفي عن أعين الثلاثة (أحمد و التازي و سعاد) وإلى جانبهم فاطمة زوجة التازي أم شيء ثالث جعلني أحرك رجلاي مهرولا خلف مخلوقات دواب ؟! ابتعدنا قليلا عن البحر، عن أصوات الموج التي قلَّتْ شيئا فشيئا فبدأنا نسمع أصوات القرية من خلال النباح. هو ذات النباح الذي كنت أسمعه في قريتنا، في قرانا جميعا ؛ النباح لغة عالمية، لكنه يختلف باختلاف أمزجة الكلاب، ويبقى في النهاية نباحا وحسب. بيد أني أفهم أن نباح الكلب الواحد يختلف من حالة لأخرى، فثمة نباح الإخبار بقدوم غريب أو لص، ونباح الترحاب بشخص معروف، ونباح الاحساس بالعطش أو الجوع، ونباحٌ الألم و... ونباح من أجل النباح !

نعم لذلك كان الرداد إذا تكلم أحدهم بغير فائدة فأطال يقول للجماعة: دعوه ينبح !

كنت أحاول الإصغاء إلى هذا النباح القادم من بعيد كي أتبين مدى اختلاف النباح لدى كلابنا وكلابهم. أليست أمة الكلاب كسائر الأمم في اختلاف ألسنتها وألوانها وأجناسها ؟!

كنت أحاول تبديد مخاوفي، فأنا أدرك أني لا أفقه تسبيح الكلاب. الكلب ! هذا المخلوق الراعي، حبه لأصحابه وشره في أنيابه. كنت ولا أزال أشد العاطفين عليه، أطعمه وأسقيه رغم ما ألاقيه من بني جلدته

Scanné avec CamScanner

الأغيار. لكم طاردني كلب الجيران كلما مررت قدام بابهم وأخافني وأفزعني، ولكنني أحب كلبي وجيراني، وأكره كلابهم الضارية !

بدت لنا أضواء خافتة ، تكاثرت وازداد لألاؤها ونحن على تل صغير، هي أضواء كهربائية ولاشك، لكنها متفرقة ومتباعدة. قال بعضنا: تلك أضواء قرية لا أضواء مدينة ! اتفق الجميع بدليل الصمت. وواصلنا المشوار. لحق بنا التازي وأحمد يتبادلان حمل سعاد الكسيحة، لاهثان من فرط الاعياء. استغاث أحمد :

- اتقوا الله يا عباد الله، آعَاوْنُونَا !

هم الجميع بالمساعدة، الكل يرغب في مداواة الجرح الكامن في أعماقه، تنفست الصعداء بعد أن انزاحت عقدة سعاد.

رد التازي : الحمد لله، لا تخلو أمة الحبيب من خير.

- الله أكبر ! الله أكبر...

- ما هذا الصوت ؟ إنه صوت المؤذن يأتي من بعيد، هو أذان الفجر إذن. توقفوا مندهشين !

- ماذا نسمع ؟

- إنه الأذان

- أعرف، هل ثمة أذان في قُرَاهم ؟

- أجل فقد مر أجدادنا من هذه الأرض، بل عَمَرُوها، ولاشك باقٍ بعضَ ما رسموا على الجدران والأدهان.

- أو ثمة إخوانٌ لنا في مساجد صغيرة بالقرية؟!

Scanné avec CamScanner

- ربما... وربما نتعرف على بعضهم، فيكون لنا خير مرشد
- فرصة طيبة.

خف وطء الأقدام من وقْعِ البشرى، وساروا باتجاه الأضواء، فقد يدرك بعضهم صلاة الصبح مع الإمام. حتى سعيد لم يجد بُدًّا من اغتنام الفرصة إذا سنحت. من أجل المال سيظل ينتقل بين المساجد والكنائس حتى إشعار آخر.

هو نفس التنقل الذي قال فيه الرداد كلمة ظريفة أصبحت مثار إعجاب نقاد المشهد السياسي ؛ تَنَقُّلُ المرشحين بين الأحزاب السياسية، إذْ كان "امبارك الرايس" ينتقل من حزب إلى حزب. من لون إلى أخر بسبب وبغير سبب، المهم أن يكون اسمه على قائمة المرشحين في كل محطة انتخابية. لم يكن أهالي البلدة يجرؤون على انتقاده، فالألوان لا تعني لهم شيئا، فهم يصوتون لصالح إبن البلدة، ابن فلان بن علان صاحب الفضل عليهم و الإحسان. على رأس كل خمس أو ست سنوات، فتلك مناسبة يدخلون معه خلالها في شراكات فلاحية، كشراء البهائم أو نحوها، يستفيدون قليلا ويفيدون الرايس، ويقضون بصحبته شهرا من الولائم حَدَّ التُّخْمَة. بادره الرداد يوما في حفل أقامه، ودعا إليه القبيلة :

- كيف حالك أسي امبارك ؟

- بخير

Scanné avec CamScanner

- مع من هذه المرة ؟

- هذه المرة مع حزب النخوة و التبوريدة ...

- بَايْن لِي آسي امبارك غَتْبْقَى هَازْ جْلاَّبْتْكْ عْلَى كْتَافْكْ وْتْدُورْ!

ضحك الجمع الغفير، وضحك سي امبارك ضحكة بلهاء لا أحسبها تخرج من فم سعيد الذي تعتمل بداخله هواجس المعتقدات و الأضداد.

لو قُدِّر لك يا سعيد أن تعيش بعد هذه المغامرة، وقَلَّبتَ بعدها صحائف عمرك الخالي، وفي يدك قلم أحمر، لحولتها إلى طلاسم بين السواد و الإحمرار، ولأدركت أنك لم تكتب شيئا يليق بالإنسان ! أنت من قلت على ظهر القارب : إذا وصلتُ إلى هناك ( ) سأبحث أول ما أبحث عن ورقة بيضاء وقلم جاف، ثم أبدأ الكتابة من جديد. سأطمر الماضي في مقبرة النسيان، سأبدل اسمي ورقمي وحلمي، سأجعل مني إنسانا آخر لم تلده أمي، ولم يترعرع صبيا ولا يافعا، ولم يراهق أبدا، سأجعل مني مخلوقا هبط إلى عالم الغرب على متن قارب وبدأ.

هذا القَطْعُ بالقطيعة بين الإنسان وماضيه في أقصى صور التحول تَعُدُّهُ القبيلة ضربا من الجنون تارة، وكثيرا من سوء الخُلُقِ تَكَبُّرًا واستعلاءً تارة أخرى. كيف يفهم الرداد وصحبه أن " امْسِعيد " الفقير كما عرفوه يتحول بين عشية وضحاها إلى "سَعْد" لا يجالسهم قرب حائط الجامع، ولا يتكلم بلكنة أهل القبيلة، تبدل رأسا على عقب منذ أن صارت لديه أرصدة في البنوك، وسيارة مرسيدس فاخرة، لا تحتمل أن يلمسها أحد

Scanné avec CamScanner

فترسل صوتا " غريبا"، كما يدخن سجائر بنية اللون، وإلى جانبه شقراء فاتنة، إذا مرت أمامهم فتحوا أفواههم فَأَنْسَتْهُمْ رَدَّ السَّلام بالإشارة على " أمسعيد " أو" سعد " كان مجرد بائع متجول فحصل على دكان وسط المدينة، تحول الدكان إلى متجر كبير ثم إلى متاجر متفرقة. يقال انه كان يتعامل مع أهل البنوك، زودوه بقروض تفضيلية، فازدهرت تجارته وازدهروا معها جميعا. أهل القبيلة لا يفهمون كيف انسلخ عن جلده بهذه الصورة كما ينسلخ الثعبان، وهو من كان يواظب على مجالسهم والتحدث إليهم في كل صغيرة و كبيرة. لذا كانوا ينعتونه بالزهو والتكبر، و يعتبرون حالته نشازا وسط القبيلة. هذا الحكم لم يأت اعتباطا، فحالة "الضاوي" شكلت لديهم مؤشر الحكم، فقد اغتنى هو الآخر في بلاد الغرب، بعد أن سافر إليها منذ ثلاثين عاما، رجع كما كان، يتحدث بنفس اللكنة والهدوء، بلباس عادي. ما إن يصل البلدة ويَطُوف على الأهل والأصدقاء بسيارة "الفولكسفاكن" الطويلة، حتى يتحول إلى واحدٍ منهم يركب حمارة أبيه ويستقي الماء من البئر، ثم يرعى البقرة وعجلها صحبة الرداد، فقد كان صديق عمره قبل سفره ولا يزال، يأمر بصينية الشاي يشربانه معا قبل أن يتحولا عشية إلى حائط الجامع، فترى الرداد نشيطا على غير عادته، يختلق المواقف الساخرة، ويجتهد في الترفيه عن صديقه الذي أغدق عليه من الهدايا والنقود، (يسلمه النقود رغم علمه أن الرداد يُنشِّط موائد القمار طيلة أسابيع

Scanné avec CamScanner

الأعياد الدينية، وأن ما أعطاه إياه ذاهبٌ إلى جيوب الآخرين لا محالة، لكنه يحس أنه فعل الواجب مع صديقه والسلام.

كنت أحلم أن أسافر مثل الضاوي البراق، أن أبقى مثله "في صْبَاغْتِي بعد أن ييسر الله لي، ويفتح لي باب الرزق الواسع. كل هذا يدور في خلدي وأنا أمشي في جنح الليل باحثا عن مسجد ؛ أما أنت يا سعاد، يا ذات الحظ الموبوء، ففيم عساك تفكرين؟ و هل ترك لك الألم مكانا للحلم والتفكير ؟ تقاسيم وجهك المستدير والمجعد تنفي ذلك، كلما شع فيه ضوء المصباح ذي البطارية الحمراء، الضوء الوحيد الذي أحمله آنذاك..

وأنت يا رشيدة... يكفيني ما حكيت لي على متن القارب ؛ وقتها أصغيتُ إليك بمرارة وانتباه شديد، وفهمت كل شيء رغم لغتك الفرنسية الركيكة التي تنثرينها بين الحين والحين في مزج لا يستساغ بتاتا. تعمدت ذلك كَيْمَا تفهمَكِ رانيا السنغالية المرعوبة. أذكر أن كلامك عن " موقف " النساء الباحثات عن شغل في البيوت هز كياني، ولم يدهش رانيا ؛ بل كانت إيماءات رأسها توحي بويلات " موقف " كئيب في بلادها. بل كان كلامها بالغ التعبير قالت : كنت أظن أن " مواقف " السود سوداء، ويبدو لي أن " مواقف " البيض أشد سوادا وحلكة !

تذْكُرُ رشيدة ذلك الثري البدين، يوم أخرج رأسه اللولبية، قفاه يشبه جبهته، عيناه غائرتان تحرسان أنفه البارز، ذا شفتين سمينتين، إذا فتح فاه تدلت السفلى من فرط وزنها. وإذْ تَحَرَّكَت نحوه، ابتسم ابتسامة مَفْرُومة، بين قاطعتيه فجوةٌ تكاد تكون سِنًّا مُقْتلعة، ركبت السيارةَ

Scanné avec CamScanner

خلفه وأوصدت الباب، ومع آخر نظرة، رمقت الأخريات يشحدنها بنظرات الهمز والغمز، ويتهامسن بشيء لم تتبين مغزاه، فتلك عادة " الْمَوَاقْفِيَّات "

دخلت "الفيلا "، كانت أحسن ما تكون تنظيمًا ونظافة ، ربما يحتاجها لغسيل أو كنس فوق السطح العلوي ...أجلسها على أريكة حريرية الملمس ،غاصت فيها مؤخرتها،ثم هوى على سطح الزربية كما يُسَجَّى السمكُ الرخو، رائحة العرق تفوح من إبطيه المبللتين ، أمرها بإزالة جواربه، وغسل رجليه ، ترددت قليلا قبل أن تقوم مرتابة في أمره، أحضرت إناء به ماء ساخن، وشرعت تغسل قوائمه وهو يئن أنينا يمزج بين الإحساس بالعياء والراحة بين يديها، جففت الماء بفوطة ، حاولت النهوض، فأمرها بتقليم أظافره، ففعلت بخوف ، ثم جذبها نحوه يُراودها عن نفسها في غلظة وجفاء. تمنَّعت، قبل أن تفاجئها امرأة في سن أمها، ترتدي لباسا تقليديا : قفطان أحمر قان ، يشد وسطها نطاق ذهبي لامع. بادرت الرجل باللوم الفاتر قائلة :

- ألم يحن الوقت لتثوب عن أفعالك أسي الحاج ؟
- هذه آخر مرة آلحاجة ،هَاذْ النُّوبة والتُّوبَة
- إيوَا هَذِي آخِر مَرَّة نْدَوْزْهَا لِيكْ، المَرَّة الجَايَّة نْعَيَّط للبُولِيسْ
- صَافِي آلحَاجَّة عُمَرْ دَاوْدْ مَايْعَاوْدْ

Scanné avec CamScanner

قلب رشيدة المسكينة يخفق بقوة تكاد تحس معها باختناق أنفاسها بل يكاد قلبها يخرج من بين أضلعها ، تسمرت في ركن الحجرة دون حراك ، نظرت اليها الحاجة قائلة :

دُوزِي آدِيكْ العَقْرُوشَة دِيرِي للْحَاجْ خَاطْرُو وسِيرِي فْحَالْكْ.

ماذا تسمع ، ماذا تقول وماذا تفعل، اختلطت عليها الأمور ، المنكر بمباركة الحاجة؟! من تكون هذه الحاجة ؟ أهي زوجته أم شيطانة في خدمة هذا المخلوق الوضيع ؟ كيف تفر وقد أوصدت الحاجة الباب دونهما ، وأدارت المفتاح دون أن تتمكن رشيدة من ابتلاع ريقها. فاستسلمت أمام قوة ذلك الوحش ، قبل أن تغادر المكان ، وتَعْلَمَ أن الحاجة لم تكن سوى "مواقفية" من نوع آخر، تمثل دور الحاجة لتسهيل المراودة على الحاج اللئيم. كل ما حدث لرشيدة على متن القارب يهون أمام مواقف الموقف النسوي، فكلما خارت قواها ، أجهدت ذاكرتها تستعيد سواد الأيام الخوالي ، فزادها التذكر إصرارا على الصمود والمتابعة .

ألقيت نظرة باتجاه أحد معارفي فقلت في نفسي :

لامكان للحب والغرام هنا، إلا في ذهن الركراكي !

ما الذي أخرس الركراكي عن الكلام كعادته؟ لاشك أنه يتسلى باستذكار واحدةٍ من مغامراته مع الحب النسوي ، ولربما أخرسه افتقاده لأداته المزاجية : "السّبْسي" وعُدَّتِه المشبوهة "المْطْوي ".

Scanné avec CamScanner

كان يطيل الحديث تنميقا وتزويقا ، وهو يحكي قصته الغرامية مع "اعبوش"... كيف التقاها على ضفة "الساقية " تغسل الأغطية ، يذكر النظرة الأولى فيسرح في عالم يشد أنفاسه ونظره، وهو يستلُّ "السبسي" ويملؤه "بالكيف " يحكي ما شاء عن جمالها وملاحتها ، ورسائل الغرام المتبادلة عبر الولد الأهبل "علال اخرشيشة ". ثم يغدق على نفسه من الثناء والإعجاب، بما يبررحبها له وافتتانها به قبل أن تمتد إليها يد عريس غريب، أمرَ والدُها أن يزوجها إياه اتقاءَ القيل والقال، فقد كان علال اخرشيشة يبوح لأخريات بمضمون الرسائل الصوتية وكان الركَراكِي كلما أنهى مغامرة خاض في أخرى ،وكلما انتهى من حكاية بدأ حكاية أخرى، حتى إذا استشعر بعض العُسرة والحرج، واختلطت عليه الأمور ، أشعل "الوقيدة" وهو يقول:(تْبْكِي عَلَى امْهَا) ثم مج دخان السبسي بعمق ، فأَخرجَه كثيفا داكنا ، وقد رسم به دوائر في الهواء يتأملها كحلقات متناثرة من شريط غرامياته البائدة.

لامكان للحب إلا في ذهن الركَراكَي !

كل ما يكسبه من نقود يصرفه عليهن. حتى لباسه وأدوات الحلاقة وقارورات العطر يشتريها من أجلهن. وهي على كل حال نقود ساخنة يحصل عليها بعد عناء، لكنه يصرفها باستهتار وتهور، ويعطي الفرصة للراداد كي يعلق عليه قائلا "مْنْ فُمْ السْبْعْ لْفْمْ السْبيعَة). هذه واحدة من بنات الدوار، لكنها لاتشبه الأخريات في شئ، فقد كانت كثيرة المزاح والتطاول على الرجال، لها من القصص والمغامرات ما يحتاج إلى وقت

Scanné avec CamScanner

ومقام، وأبرز ما عُرف عنها فرارها مع الركراكي إلى مدينة الصويرة ذات صيف ، وما تَلاَ ذلك من قيل وقال . تلك هي اسْبِيعَة التي اغتنت من مال الركَراكَي، ومال زوجها السابق، ومال غيرهما، والركَراكَي هو الركَراكَي .حياته داخل سوق "الجُّوطِية" يتقلب بين بائع ومشتري، بين ربح وخسارة ،هناك حيث يُباع كل شيء، بقيمة وبدون قيمة، لغط وضجيج و"دلالة " وخليط من ملبوس ومأكول ومُستعمَل لأغراض شتى. كان الرداد يكره سوق الجُّوطِية. ويسأل الله أن يعفو عن روادها فيردد دائما "إنَّها بْلْيَة".

لكن الركَراكَي يقول :الله يْعَمْرْهَا دار الجُّوطِيّة ! مرة وسط رُكام أثاثٍ منزلي، لمح "عود القماري" شمه فعرفه لكن البائع لم يعرفه وأنَّى له أن يعرفه ؟ سأله عن ثمن تلك القطعة الخشبية التي تميل إلى السواد، فاستهزأ البائع وقال له :"خُذْهَا وْهَنِّينِي") قام الركَراكَي بتقطيعها أطرافا صغيرة ، وأعاد بيعها لمن يعرف قيمتها بثمن محترم. وقد كان أكثرُ دعائه "الله يْجْعلْ الغَفْلة بينْ البايْع والشَّارِي" تكاثر الباعة والمشترون بسوق الجوطية فأصبحت مثل سوق على مدار الأسبوع. حتى سي علال "الجبار" اتخذ لنفسه مكانا معروفا داخل السوق إلى جوار الحلاق والاسكافي وبائع الخبز والسردين المقلي ...

سي علال الجبار وما أدراك ما سي علال قال يوما للجماعة :

لو حدث تفكك مفصلي، لابد من إعادة رأس العظمة إلى مكانه كي يذهب الألم، وهو أحد العارفين بالكسور والتفككات العظمية. تذكرتُ

Scanné avec CamScanner

ذلك فجأة عندما تحولَتْ رشيدة إلى جانب سعاد تشد أزرها في محنتها، وتواسيها بكلمات الصبر المعروفة . علمتُ فورًا أن الطريقة التي ضمد بها كعب سعاد لم تكن سليمة . حكيت لها ما قاله سي علال الجبار ، فرجتني أن أعيد ضمادها .المريض المتألم يتعلق بقشة أمل في العلاج... أخذت أفك الضماد، وأتلمس مواقع المفصل كمن خَبر وضع الجبيرة، وفي نيتي أن أعطيها دفعة أمل وثقة تساعدها على المشي. كنت أضغط على العظام وأسألها أن تُعْلِمَنِي إذا أحست بزوال الألم، لأتبين ما يجب حزمه، فلا بد من إعادة رؤوس العظام إلى مكانها. ضغطت على رأس العظمة الخارج من مكانه بقوة، فصاحت المسكينة من شدة الألم . ربطت الضماد كما استطعت وعرفت ،فإذا بها تحس براحة عجيبة لمستها من خلال ملامحها ونظرتها، بل استطاعت بعد هنيهة أن تضع قدمها على الأرض، وتحاول المشي. الكل يشجعها وهي تمشي ببطء شديد، قلت لها، إذا تمكننا من الوصول إلى المسجد، سأتدبر قطعة ثلج تُزيل انتفاخ القدم، وستكونين بخير إن شاء الله ! ومنذ ذلك الحين لم ينادني أحدٌ باسمي، فقد أصبحت طبيب الجماعة ، ينادونني ب "الدكتور عظيمة "نعم طبيب بالخبرة وطبيب بالتجربة وطبيب بالزعامة .الرداد لم يزر في حياته طبيبا قط .كان يردد دائما : "سَالْ الْمجَرَّبْ لاَتْسَالْ الطَّبيبْ ".

يخشى شوكة الحقن، ويكره رائحة الأقراص الصيدلية، ولا يجرؤ على دخول المستشفيات حيث يرقد المرضى، فرائحتها تحرك معدته من الداخل وتثير فيه حَمْأة القَيْئ. مرَّة أُكْرِه على دخول المستشفى حيث

Scanné avec CamScanner

كانت ترقد "مّي مَسْعُودة " كنت إلى جانبه، يسير بركبتين ترتجفان، تبدل لونه نحو الاصفرار، سلَّم عليه أحدهم فتخلص منه بسرعة، سألته من هذا ؟ فأجاب : عَنْدُو الفْدَقْ ،انفجرتُ ضحكاً أثار انتباه الجميع، فجذبْتُه خارج غرفة المرضى ، وأكملت ضحكتي... قال لي :"عْطَاتْكْ لْيَامْ آوْلِيدِي".

فعلاً، لم أكن لأغلبُه في الكلام إلا داخل المستشفى حيث يشعر بالضعف جراء الغثيان والخوف. ومن يجادل الرداد خارج نقطة ضعفه الوحيدة؟! ... ما أعجب دنياكم في عين الرداد يا ناس المدينة ! يعجز عن الحياة كما يعرفها في زحمة شوارعكم المتفرعة، في انسداد آفاقكم واتساعها عبر الصور والأسلاك، وفي تيهكم وسط ركام الأرقام والأوهام...هو من زار يوما أهلَه التائهين في الزحام ، وسمع إحداهن تقول للأخرى :تُعَشُّونَهُ بالسردين، إيوَا قُولُوا ما بْغِيتُوهْشْ وْالسَّلامْ" أسرها في نفسه، وبات ينتظر الفلق، حتى إذا أصبح عاد من حيث أتى، سمع وسمع وسمع عن غرائب اللصوص وقطاع الطرق بالليل والنهار، فبات يمشي موسوسا مهووسا، يظن أن يُفْعَلَ به شيء مما قيل ويقال. "لو اعترضوا سبيلي لأعطيتهم جلبابي وملابسي وعدت عريانا سالما إلى البلدة" يقولها، ويسخر ممن أراد إظهار شجاعته أمام قطاع الطرق لما اعترضوا سبيله ذات ليلة، قالوا له:كيف تسير وحدك؟ ألا تخاف أن يعترض سبيلك أحد؟ أجابهم : وما عساه يفعل بي، يقطع أذني؟ فقطعوا

Scanné avec CamScanner

أذنه. قال بوشعيب الهيبي: أدفع نصف عمري وأرى الرداد يعود عريانا حافي القدمين وقد سلبه اللصوص ملابسه !

الكثير منا يسير بنصف ملابسه، فقد تبللت أثناء الصعود، وكلما اقتربنا من الأضواء، تثاقلت الخطى، وتبادلنا نظرات تبحث عن دفء الحماسة المفقودة.

التازي : أسرعوا قليلا، ستقام الصلاة.

– أنصلي بغير وضوء ؟

– تيمم يا أخي

– حسنا، سأفعل.

دخلنا المسجد الصغير، وجلست البنات بجوار أسواره.

دخولنا بهذا الشكل الجماعي أثار فضول الحاضرين، نظراتهم تتفرس وجوهنا، وكلنا يمنع نفسه عن مبادلتهم نفس النظرات. دخل الإمام، أمر بتسوية الصفوف وهو ينظر إلينا واحدا واحدا، ثم استقبل القبلة وكبر. بعد التسليم أومأ إلى التازي فدنا منه بسرعة. كلنا يترقب ما يدور، ويأمل في مساعدة أو مخرج.

ماذا لو أهملوا وجودنا ،وطلبوا منا الانصراف والابتعاد ؟

ماذا لو أخبروا عنا السلطات ؟

ألف سؤال وسؤال

Scanné avec CamScanner

سأل الإمام التازي : من أنتم يا أولادي ؟

– نحن إخوانكم في الله ،عابرو سبيل ،هاجرنا من بلادنا إلى بلاد الغرب هاته

– عن أي غرب تتحدث يا ولدي ؟ نحن في الشمال لا في الغرب

– هل تعني شمال اسبانيا ؟

– بل شمال المغرب

– كيف؟ لا يمكن مستحيل !

– بل هي الحقيقة يا ولدي كيف وصلتم إلى هنا؟

– على متن قارب، عبرنا البحر طلية ليلة البارحة.

– لقد خدعوكم إذن. فقوارب الموت لا أمن ولا أمان لها. أُغمي على سعيد، بكى أحمد، انهار آخرون، وانحبس الكلام بداخل فمي، وغابت قدرتي على الحركة.

أدرك المصلون حقيقة الخَديعَة، هرعوا لمساعدتنا، يرشون الماء على سعيد، فاستعاد وعيه قليلا.

ياإلهي ! كيف يحصل هذا ؟ أيكون القزم بهذه القسوة والدناءة ؟ رسم قوسا داخل البحر، أعادنا إلى نقطة محاذية لنقطة الانطلاقة ومضى... هي والله الخُدعَة بشتى ألوان السواد.. "لو كان السواد لونا" (المصلون يمسحون دموعنا، يتلون علينا آيات الصبر والتوكل على الله. من حسن حظنا أَنِ اكتشفنا الحقيقة في بيت من بيوت الله، فأين اكتشفها الآخرون، وماذا حل بهم ؟

Scanné avec CamScanner

قام سعيد من مكانه يهذي بكلام فيه شيء مما أثار حفيظة الإمام، فأمره بمغادرة بيت الله. خرج على الفور، تبعناه جميعا. كان سعيد يتمتم : سأعيش بقية عمري من أجل شيء واحد : البحث عن القزم والتمثيل بجثته بعد قتله..

خلف المسجد تقبع فاطمة ورشيدة بجانب سعاد، تنتظرن خروجنا. كيف نخبرهن بما جرى ؟ وهل تتحملن وقع الخبر ؟ استوقفني نداء إمام المسجد يتبعنا، ناصحا ومشيرا : عليكم إبلاغ السلطات بما جرى، وإعطاءهم أوصاف القزم وصحبه، كي يخلصوا منه أمثالكم. قلت وماذا ينفع التبليغ عنهم ؟ وكيف نُبلّغ عن جرم ارتكبناه في حق أنفسنا قبل أن يرتكب القزم أبشع منه ؟ ألم يجد مكانا للنصب غير البحر ؟ رد التازي: أنا القزم أنا القزم وليس هو أنا القزم... (وبكى).

ويمشون كما تجرهم أقدامهم، إلى حيث لايدرون، ينبطحون أرضًا كالجمل يُنيخُ بكَلْكَلِه من فرط الإعياء، ينحبس الكلام، يزداد الهم والناس نيام، وهذا الظلام يخنقني...

وينبلج صبح بلون الرماد بعد طول انتظار، ونسير على شاطئ البحر آملين أن نستفيق من الكابوس المرعب الذي رسمه إمام المسجد، هو التيه إذن، صدق أم لم يصدق !

نأى سعيد بضعة أمتار، توارى خلف صخرة، حسبناه يقضي حاجته، ولمّا لمْ يعُدْ بعد ربع ساعة، تبعه التازي، فإذا به قد تمرغ في

Scanné avec CamScanner

دمه : جَزَّ عروق ذراعه بقطعة زجاج، نزف حتى تهاوى، فقضى... ما العمل ؟

جرى التازي باتجاه المسجد، وعاد لاهثا يصطحب الإمام يُحوقل ويقرأُ ما تيسر من القرآن. أرسل أحَدَهُم إلى بيت "لْمُقدَّم ". آنذاك، أدرك التازي أن إخبار الإمام لم يكن في صالحنا، سيجر علينا ويلاتٍ من الأسئلة والأجوبة والعناء الذي لم تعد لنا طاقة به. أومأ إلي برأسه أن أتبعه، حاولت إخبار الآخرين خِلسَةً ،تسلَّلْنا وسط حشدٍ من النسوة والرجال والأطفال الذين تحلَّقوا حول جثة "سعيد".

– أعيدوهم إلى هنا، صاح الإمام. أتريدون التنصل من فعلتكم وتَمْرِيغَنَا في وَحَلها ؟ هَمَّ الجميع بإيقافنا، فتوقفنا.

يا للهول ! كيف تتوالى المصائب بهذا الشكل ؟

مُصَابُ الخُدعة القزمية أضعفَ كل مصاب بعدها. رحمك الله ياسعيد ! أنقذت القارب من جبروت القزم وصحبه... أَمَّنْتَ رحلتنا وسط بحر الظلمات والنكبات... كيف تنقذنا من الغرق في الماء وتغرق في الدماء؟ !

جثمتُ على ركبتاي، تلُفُّ بي الأرض لفات، أَحُدُّ منها بالانكماش والإمساك بأم رأسي. كلهم يلفون أمامي، بين الشحوب والأحمرار الزائد، كلهم يُمَنُّونَ النفس باليقظة من كابوس مرعب. أيعقل هذا ؟ أتكون المتاجرة بأحلام البؤساء ؟

Scanné avec CamScanner

عم الفساد في البر والبحر.

أي فساد أمر وأنكى، أي فساد أقسى وأبكى ؟

هذا الفساد بكل ألوان الطيف القزمية !

هذا الفساد بكل أشكال الحرمان والإدمان والإذعان !

هذا الفساد بكل أنواع الموت الغادر الخوان !

هذا الفساد خليط من محيط الخطايا والنوايا الباغية !

هذا الفساد يمسك لسان الراوي بداخلي، يحطم أقلامي، يمزق أوراقي، يحرقها، يدسها في التراب رمادا.

كأسٌ أعدَّها آل القزم، مُرٌّ مذاقها، وحرارتها تكوي أضلعي وجوانحي، يخفف حرها أني أول من أذكى شعلتها...

إيه يا سعاد البئيسة، أي ريح ألقت بك في هذا المكان عبر قوس غريب الشكل والألوان ؟

أمن أجل هذا القوس تموت نوال، ويقتل الوجدي وتتوزع أشلاؤه بين الحيتان والأسماك ؟

أمن أجل هذا القوس ينتحر سعيد ؟

أمن أجل هذا القوس نلاقي كل هذا العذاب ؟

هي الخديعة ولاريب. يوم خُدعَ الرداد في عشرة دارهم، جعل منها حكاية رائجة، يعيد سردها عِبْرةً لمن يعتبر: كان يقود عربته الصغيرة، يجرها حمار هزيل، فإذا بأحد اللصوص يطلب منه إيصال كيس مملوء، ادَّعَى أن به خضرا وفواكه إلى مكان معلوم، ركب إلى جواره فترة، ثم

Scanné avec CamScanner

طلب منه عشرة دراهم يسدد بها دَيْنًا لأحد الباعة، على أن يَرُدَّها إليه ساعة الوصول. لم يشك الرداد لحظة في الرجل الذي كان على قدر من الأناقة والشياكة، فسلمه ما أراد ووقف ينتظر عودته... بعد مرور ساعة من الزمن ، داخله شكٌّ في أمر الزبون، حكى الأمر لأحدهم، فأمره أن يفحص ما بالكيس، فلما فعل تبين له أنها كانت مكيدة مدبرة : وجده مملوءا بالقشور والأزبال. عندها أدرك أن صاحبه لم يكن سوى لصٍّ محتال.

عيناي لاتفارقان جثة سعيد ، أتأمل دماءه كوديان حمراء راكدة...

واتأمل وجه التازي الشاحب، وسط لحيته السوداء الكثة، وانهيار سعاد، ودموع رشيدة البلهاء ... نظرات الجميع تلتهمني وتتهمني، وألسنتهم تلوك قصتنا في حسرة وأسى بل وشفقة.

جَمهرة أهل القرية الساحلية توحي أَنْ لَمْ يتبقَّ بالمنازل إلا مريض أو عاجز... احترتُ في أمر عجوز لم ترواح مكان الجثة، بل حَضَنَتْها وهي تبكي بحرقة بالغة، وتنوح راثية ابنها الوحيد الذي ذهب ضحية قارب من قوارب الموت. التفتَتْ نحوي فجأة، ثم أمسكت عنقي بكلتا يديها وهي تقول: قتلتم ابني، قتلتم ابني، أيها الأوغاد !

كادت تخنقني لولا تدخل أحدهم، فقد خارت قواي من هول الكارثة !

جلستُ من جديد أستعيدُ أنفاسي، وأصارعُ سعالاً حادا متواصلا وأنتظر وصول سيارة "ادجيب".

Scanné avec CamScanner

وصلَتْ قبلها سيارة إسعاف، حملت سعاد ثم سعيد ، وبعدها اقتادنا رجال الدرك إلى المخفر.

أُدخلنا قاعة كبيرة، يتوسطها مهاجرون سريون، وكلهم سود البشرة. أمرنا أحد الدركيين بالجلوس في الركن الأيسر، بينما أخذ الآخر يتكلم عبر الراديو، سمعنا أحدهم يخاطبه : "لاتزال الفرقة البحرية الثالثة تطارد قاربا مطاطيا قرب سواحل الحسيمة، وتحتاج إلى تعزيزات"، ثم غادروا القاعة وأوصدوا الباب دوننا... وبعد ساعاتٍ، فُتِحَ المحضر ...

قال الراوي انتهى كلام نور الدين عامر.

Scanné avec CamScanner

رحمة الله عليك يا "مّي مسعوة"، يا أم الرداد العزيز، صغيرا كنتُ أحدث نفسي، كلما نظرتُ في عينيك، بأن الموت لن يصل إليكِ، فأنتِ مبروكة!

كل نسوة الدوار ترددن: مسعودة الزنجية بلون أسود وقلب أبيض.

"تفزع كلما رأتني أتسلق كروم التين، وكرمة الإجاص الوحيدة في البلدة آنذاك، فتأمرني بالاكتفاء بما جنيتُ، والنزول بحذر شديد، تربت كتفاي في حنو نادر، وابتسامتها تملأ الآفاق. كأني ببياض أسنانها البراق وسط سواد بشرتها، ثلجا تهاوى على نتوء صخرية سوداء. أقرأ في حور عينيها، وارتعاشة شفتيها البارزتين، ذلك الهدوء الذي يخفي قلقها علينا من المكاره، لن تصدق "مي مسعودة" في قبرها أبدا، أن أبناءها يركبون أشجارا بلا جذوع أو جذور، أشجارا تطفو على سطح الماء وعلى جناح المكر والخديعة...

20 درهما

elayachitabit@hotmail.com

دار وليلي للطباعة والنشر
الهاتف / الفاكس: 48 40 31 024
e- mail: Impri walili@menara.ma

Scanné avec CamScanner